الإسراء وإسرائيل

الدكتور محمد هلال

مؤسسة الرسالة

دار البشير

الإسراء وإسرائيل

الطَّبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

****

رقم التصنيف	٢٨٢,٤
المؤلف ومن هو في حكمه	محمد هلال
عنوان المصنف	الإسراء وإسرائيل
الموضوع الرئيسي	١- الديانات
	٢- الغزو الفكري والثقافي
رقم الإيداع	١٩٩٦/١١/١٥٦٣
بيانات النشر	عمان : دار البشير

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ١٢١٨ / ١١ / ١٩٩٦



مؤسسة الرسالة / بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ ص.ب ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

دار البشير

ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution
Tel (659891) / (659892)
Fax (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box (182077) / (183982)
Jawhart al-Quds Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

انتفاضة الفكر

بقلم حسن النل

على كثرة ما تقذف المطابع من الكتب هذه الأيام فإن كتاب (الإسراء وإسرائيل) من الكتب النادرة في أهمية موضوعه ومستواه البحثي والجهد الذي بذله المؤلف (الدكتور محمد هلال) حتى جاء على هذه الصورة المتقدمة بما حشد له من معلومات أحسن قراءتها وأجاد تحليلها فقد تناول الواقع السياسي القائم في صراعنا مع اليهود تناولاً علمياً موضوعياً يبرز للقارئ الجهد الضخم الذي بذله المؤلف في تحري الحقيقة من خلال قراءته النقدية المضنية للنصوص القديمة ومتابعته الدؤوبة لكشف التزوير في تلك النصوص وتذليلها وليّ عنقها لتخدم المخططات السياسية التي تستهدف تحقيق الأطماع الصهيونية الاستعمارية، كما أن هذا الكتاب يكشف العجز الذي تردى به كثير من المسلمين علماء وساسة أمام هذا الغزو الثقافي الذي جيشه الأعداء ليكون مقدمة لغزوهم العسكري والاستعماري بأنواعه المختلفة.

لقد عجز (العلماء المسلمون) القريبون من أصحاب القرار أن يشعروا الساسة بخطورة المعركة الثقافية وما استعملته من أسلحة في تخريب النفوس إلى الحد الذي جعلها تستقبل الهزائم المتكررة بلا أبالية وعدم اكتراث رغم ما تحمله من وسائل التدمير التي لا يشكل احتلال الأرض إلا جزءاً منها، وإن الخراب ممتد ليفسد

حياتنا الاقتصادية ويحوّل سكان المنطقة إلى (عملة وعبيد) يخدمون أسياد المرحلة الجديدة مقابل كفافهم بل ويتجاوز الخراب الاقتصادي إلى الخراب النفسي والصحي والسلوكي وبات الخطر على هذه الجوانب وشيكاً إن لم يكن قد بدأ فعلاً يفعل فعله في أذهان الناس وإيمانهم وسلوكهم..؟

فعلى الرغم مما يفيض به القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والواقع التاريخي من آيات وأحاديث ووقائع تحذر من الأخطار التي تتربص بالمسلمين بل وبالحضارة الإنسانية كلها إذا علوا في الأرض فإن واقعنا الثقافي يُعتم تعتيماً مقصوداً على هذه الأخطار ويكفي هنا أن نشير إلى الآية الكريمة التي تفضح النفسية اليهودية إذا استطاعت أن تسود وتحكم، وما يترتب على هذه السيادة من أخطار ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذن لا يؤتون الناس نقيرا﴾[النساء:٥٣]، وكذلك الحال في تعاملهم مع الغير وما يلجأون إليه من مكر وصفته الآية القرآنية بأنه يزيل الجبال ﴿وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وما أشبه اليوم بالبارحة فإن ما يحدث في هذه الأيام في عملية السلام دليل على ماضيهم في تعاملهم مع المسلمين، وقد كشف القرآن أشكالاً من المؤامرات ونقضهم للعهود التي عاهدوا بها الرسول ﷺ. في سورة البقرة آية (١٠٠) يقول القرآن عنهم ﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾

وفي سورة الأعراف آية ١٠٢ ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ وكذلك في سورة البقرة آية ٢٧ ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾، أما سورة الأنفال فقد حسمت الأمر معهم وكشفت حقيقتهم وحددت موقف الرسول ﷺ والمسلمين منهم ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ الأنفال ٥٦ ـ ٥٨.

أما علماء الجماهير فاكتفوا بالإثارة التي لا تقدم المعرفة القادرة على تنشئة الأجيال تنشئة تربوية قادرة على إدراك مسؤوليات المرحلة وما تفرضه من حتميات قادرة على التعامل مع الأحداث ومدركة لمسؤولياتها في وجه هذا الطوفان الذي اجتاح شخصية الأمة وفعل فعله في سلبها لمقومات الوعي القادر على مواجهة التحدي بما تفرضه المرحلة من وسائل فاحبطت قدرات الأمة وسلبت ارادتها لأن (علماء الإثارة) أكملوا الدور الذي بدأه علماء السلطة الأمر الذي أفضى بالأمة إلى تربة رملية غير مستقره لا تحسن الحركة ولا تجيد التفكير فتبدد الجهد وضاعت الفرص حتى انتهى الأمر فينا إلى هذا الواقع المأزوم في كلا الحالتين فلا (علماء السلطة) استطاعوا أن يؤثروا التأثير النافع فضاعوا

وضيعوا.. ولا (علماء الجماهير) أحسنوا القيادة بل كان العكس هو الصحيح فقد عرّضوا النخبة التي استطاعت أن تستعلي على وسائل الاختراق الفكري والخراب النفسي إلى متاهات افضت بهم إلى أنواع من المعاناة لا يعلم إلا الله ما حملّتهم من آلام ليس الاستشهاد والقمع الجسدي إلا صورة من صور الألم الذي تعرضت له تلك النخب، أما الغربة وما رافقها من مصاعب وتحديات فقلما التفت إليها واحد من هؤلاء العلماء العجزة وأترك لذهنك العنان ليتصور ألوف الشباب والأسر الذين ضاقت بهم أوطانهم واضطروا إلى الهجرة فراراً بدينهم أو خوفاً من تعسف الظلمة أو.. أو..

ونحن نعلم المؤثرات المختلفة على نفسية وعقلية أصحاب القرار ولكننا نعلم كذلك أن من واجب العلماء أن يذّكروا أصحاب القرار بحقيقة النفسية اليهودية التي وضحّها القرآن كما لم يوضحها كتاب آخر على كثرة الكتب التي تحدثت عن طبائع اليهود دفعاً للحرج وقياماً بواجب التبليغ إعذاراً إلى الله.

إن تعليق ما آلت إليه حالتنا السياسية على مشجب بعينه هو هروب بل جريمة لأن المأساة متعددة الجوانب كثيرة الاختراقات متعددة الثقوب. لقد كان أول عمل قام به أعداء الإسلام هو الاغتيال السياسي للقواد والزعماء المسلمين الذين كرسوا أنفسهم لإعلاء كلمة الدين كما كرّس أعداء الإسلام جهودهم لتفريق المسلمين مستغلين أي اختلاف في وجهات النظر مختلقين

الشائعات مهولين من الأحداث ونجحوا في هذا الأمر أيما نجاح وتفرق المسلمون لأسباب سياسية ولكن أعداء الإسلام استغلوا هذا الانقسام ليجعلوا منه انقساماً مذهبياً ثم خلقت العصبيات القبلية وزرعت النزعات الشعوبية واخيراً رسمت الحدود ووضعت السدود بين المسلمين حتى بات المسلمون فرقاً وأحزاباً متخاصمين مخالفين لدعوة القرآن الذي يقول﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾[الأنعام: ١٥٩].

وما أن تفرق المسلمون وتباعدوا حتى دهمهم الهجوم العسكري الصليبي وكان الصليبيون يحتمون باسم المسيح ويبررون أعمالهم الوحشية بحجة حماية قبر المسيح وكأن المسيحيين لا يعرفون أن المسيح صعد إلى السماء كما تذكر أناجيلهم ودخل غودوفروى الملقب بحامي قبر المسيح مدينة القدس على أشلاء القتلى وبعث برسالة إلى البابا يهنئه فيها بالانتصار ويذكر فيها أن دماء المسلمين جرت في شوارع القدس أنهاراً حتى وصل الدم إلى الركب.

واستمرت هذه الحروب المدمرة مائتي عام استطاع المسلمون بعدها إجلاء آخر جندي صليبي محارب من بلاد الإسلام ثم عاد الاستعمار الغربي إلى بلاد المسلمين بوسائل وأساليب اعتمدت الدراسة العلمية التي مكنتهم من تحقيق الكثير من أهدافهم التي كان منها إن وقع المسلمون تحت نير الاستعمار الحديث والذي

اعتبر امتداداً للحروب الصليبية.

فبدأ الاستعمار بالعمل المباشر وبشكل منظم لغسل الدماغ الإسلامي فأرسى قواعد التمدن الحديث كما يراها هو لتبقى البلاد تابعة له فكرياً وثقافياً وأول ما عزل من المدارس تعليم القرآن الكريم الذي يعتبر سر قوة المسلمين إن تمسكوا بتعاليمه، وذلك عملاً بوصية وزير المستعمرات البريطاني جلادستون الذي قال: (ما دام القرآن في أيدي المسلمين فلن تسيطروا عليهم ولن يلين لكم قيادهم) وأقام القيامة على اللغة العربية ووضع الخطط لمحوها من البلاد الإسلامية ليبعد المسلمين عن قراءة قرآنهم وأوعز إلى عملائه المطالبة باستبدال كتابة الحروف العربية من الرسم العربي إلى الرسم اللاتيني وقد أفلح في بعض البلاد فقطع تلك البلاد عن تاريخها وعن دينها وأبعدها عن العرب وقام الاستعمار بتغذية النعرة القومية بدلاً من الجامعة الإسلامية ليزيد من فرقة البلاد الإسلامية وذلك بعد أن رسم بينها الحدود وأقام بينها السدود حتى ليصعب على المسلم الانتقال والاتجار بين الدول الإسلامية المتجاورة ويسهل عليه الانتقال والتعامل مع الدول المستعمرة الغريبة عنه لغة وديناً وعرقاً.

وقد مهد الاستعمار الطريق للصهيونية العالمية وشعارها (من الفرات إلى النيل أرضك يا إسرائيل)، إن الصهيونية العالمية تعمل منذ أكثر من مئة عام بشكل منظم ومدروس لتفتيت القوى الإسلامية فهي أولاً وبمساعدة الاستعمار قضت على الخلافة

الإسلامية ودعت حركات الانفصال بحركات التحرير من (الاستعمار العثماني) ولم تكتف بذلك بل أيقظت النعرات الطائفية والعرقية والقومية والطبقية في البلاد العربية بغية أضعاف الجبهة الداخلية ولكي تجعل من بلاد العرب دويلات صغيرة متنافرة متناحرة مع بعضها البعض ليسهل عليها ابتلاعها في الوقت المناسب.

أما بعد فإن الدكتور محمد هلال بكتابه (الإسراء وإسرائيل) أعاد الثقة بقدرة الباحث المسلم على اختراق الحواجز وهدم الأسوار التي وضعت في طريق المسلمين لتحجب عنهم الرؤية القرآنية وبدأ في ترميم الطريق التي ملأها الشياطين وأقرانهم بالحفر والصخور.

والذي مارس عمليات البحث والدراسة والمقارنة يدرك الجهد الضخم الذي بذله المؤلف حتى أخرج كتابه على هذه الصورة المضيئة التي تبعث الأمل في مستقبل هذه الأمة التي يمتلئ واقعها بكل هذا الفشل الذي أطبق عليها من كل الجهات.

إن الدكتور محمد هلال في كتابه (الإسراء وإسرائيل) بدأ الطريق في سد أنواع الفراغ الثقافي والفكري في جانب من أخطر الجوانب في حياتنا الثقافية وهو أحد كتاب الطليعة الذين خرجوا عن الأطر التي رسمت للمثقفين واستطاعوا أن يتمردوا على العقبات التي وضعت في الطريق ويعيدوا توجيه الأمة إلى مصدر قوتها ومنابع عزتها.

لقد استطاع الدكتور محمد هلال في كتابه (الإسراء وإسرائيل) أن يعيد رمي الكرة في وجه الخصوم ويعمل على بعث الذاكرة الإسلامية بما تمتلكه من كنوز قادرة على إعادة بنائها من جديد.

إن هذا الكتاب لا تغني معه القراءة السريعة لكنه يحتاج حتى يمكن الإفادة منه أن يدرس دراسة جادة في إطار من الظروف التاريخية المختلفة والواقع القائم المختل حتى يضع القارئ يده على بداية الطريق الصحيح وصدق الله العظيم ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف: ٢١].

حسن التل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة: ٢٩-٣٣].

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٨-٢٩].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٥-٩].

المقدمة

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾.

تكرر هذا الوعد ثلاث مرات في القرآن الكريم، وهو وعد بإظهار دين الحق الذي أرسل به محمد ﷺ على كل الأديان لأنها أديان باطل، وهذا الظهور سيتحقق رغم كراهة المشركين ـ أصحاب أديان الباطل ـ وسعيهم لتدمير هذا الدين، وسيتحقق بشهادة الله وإذنه وكفالته.

ولقد تحقق هذا الوعد مرة على يد رسول الله ﷺ وأصحابه واستمر فترة طويلة من الزمان، وكان دين الحق أظهر وأغلب وكانت الأديان الأخرى تخاف وترتجف، ثم تخلى أصحاب دين الحق عن رسالتهم في إظهاره وعادوا اليوم مهزومين يتمسحون بأصحاب الديانات الأخرى أن يعترفوا بهذا الدين في منظومة أديانهم الباطلة، ويبحثون عن أوجه المشابهة بينها وبينه وهم يظنون ـ أو يتظانون ـ أنهم بذلك يخدمون هذا الدين. وحتى الأرض التي سيطر عليها هذا الدين أصبحت تنتقص من أطرافها بل وقامت في قلبها قلعة لأديان الباطل، ولم يجد المسلمون حرجاً

من أن يستخدموا المغضوب عليهم بأن يسمحوا لهم بالإشراف - تحت سيطرتهم - على أجزاء من الأرض لأنهم سبقوهم - كعرق - في سكناها في يوم من الأيام ولأنهم كانوا يعيشون فيها في « أمن وسلام » حين جاء المغضوب عليهم ليسيطروا عليها وأخذوا يستنجدون بالضالين أن « يتوسطوا » لهم في مطالبهم « العادلة » عند المغضوب عليهم.

ولكن هذه ليست نهاية المطاف.. إن وعد الله قائم ينتظر الأمة المسلمة التي تحمل الراية من جديد وتمضي منطلقة من الاعتزاز بهذا الدين وحده وبمنطلقات هذا الدين وحدها وبالمبررات الأدبية لهذا الدين وحدها، لأن هذه هي نقطة البداية وكل انحراف عنها هو هزيمة منذ البداية لا يرجى معها نصر لا في بداية ولا في نهاية.

وفي سورة الفتح جاء هذا الوعد بإظهار هذا الدين قبل ذكر البشارة بهذا الدين التي وردت إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وفي سورة الصف جاء هذا الوعد بعد ذكر هذه البشارة وأضيف إليهما بيان حقيقة نوايا أهل الكتاب نحو هذا الدين وقد تيقنوا صِدْقَه ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾. وفي سورة التوبة تكرر هذا الوعد مع هذا التنديد بنوايا أهل الكتاب وأضيف إليهما الحكم النهائي في علاقات المسلمين مع أهل الكتاب، وهو القتال أبداً حتى يؤمنوا أو يخضعوا[١].

والمسلمون اليوم بحاجة لأن يتذكروا المنطلقات الدينية العقيدية لصراع الإسلام مع أهل الكتاب باعتبارهم القوة الأولى التي تقف دون قيام المسلمين بواجبهم في تبليغ دين الله للناس وتعبيدهم لشرعه.

وقد يرى البعض أن تذكيرنا بشمولية المعركة وحاليتها واستمراريتها مثالية فكرية بعيدة عن ضرورات الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم والذي لا يامنون فيه على مجرد وجودهم الجسدي كأفراد وشعوب ونحن اليوم أحرص الناس على حياة باتباعنا سنن أهل الكتاب كما أخبر به رسوله الله ﷺ * وأنّ علينا أن ندافع عن قضايا وجودنا المجرد كأفراد وشعوب بالمنطق الذي يفهمه أعداء الله أو يريدوننا أن نستعمله لنحافظ على وجودنا المادي، ولعلنا بعد ذلك أن نفعل شيئاً في سبيل هذا الدين. ولكن واقعنا هذا إنما حصل نتيجة أننا نسينا أو تناسينا واجبنا الذي أخرجت الأمة التي ننتسب إليها من أجله وتغيير واقعنا يكون بالعودة التامة والمباشرة إلى أصول واجبنا ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك**

---

* روى البخاري وابن ماجه والترمذي وأحمد في المسند والحاكم في المستدرك عن أبي سعيد وابن عباس وأبي واقد الليثي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه» قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن إذن؟

من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة :٦٧]. وبهذا التبليغ نعصم من الناس(٢) وكل محاولة للتجزيء والتدريج والتمسح بالواقع هي غشاوة على عيون محاوليها ومزيد غشاوة على عيون عامة الأمة يتحمل وزرها الذين استودعهم الله أمانة العلم والتبليغ.

وهذا الكتاب مساهمة في بيان جذور الصراع وطبيعة المعركة وأبعادها. وهو يتكون من بابين الأول عن الإسراء وإسرائيل يستهدف من خلال تأمل افتتاحية سورة الإسراء أن يبين البعد العقيدي التاريخي للمعركة بين بني إسرائيل وأمة الإسراء. والثاني يستهدف تصحيح المفاهيم في طبيعة المعركة والرد على بعض الشبهات التي تزيف حقيقة العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب.

وقد ختمت الكتاب بفصل عن خصائص الرسالة المحمدية مستخرجة من المواضع التي ذكر فيها اسمه عليه السلام في القرآن الكريم، ووجدت أن على كل مسلم أن يتدبر هذه الآيات ويحفظها لتكون شعارات معركة في مواجهة الشعارات ذات المظهر البريء والخلفية الخبيثة التي تطرح اليوم والتي يراد بها تزييف المعركة.

وأنا لا أزعم الوصاية على هذا الدين وإنما هي نظرات غيرة على الإسلام من هذا الواقع الذي وصلنا إليه وقد جهدت أن استقبل آيات القرآن الكريم كما ينبغي من استقبال العبد لكلام مولاه العظيم أي دون مسبقات تحكمية من خلفيتي الثقافية أو

رغباتي العاطفية ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وهذا هو منهج فهم القرآن ولا أزعم الصواب في كل ما توصلت إليه فما أصبت فمن توفيق الله، وما أخطأت فمن تقصيري وإذا استطاع هذا الجهد المتواضع أن يحفز همة أو يثير تأملاً يصب أي منهما في دفع عجلة الحركة بهذا الدين ولو خطوة إلى الأمام فهذا نهاية أملي وما توفيقي إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الباب الأول

الإسراء وإسرائيل

جذور المعركة بين أمة الإسراء وبني إسرائيل
كما تبينها افتتاحية سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء: ١-٨].

تمهيد

ما هو السر في جمع مطلع هذه السورة المباركة بين إسراء محمد ﷺ ورسالة موسى عليه السلام وذكر إفسادي بني إسرائيل؟

وما هما مرتا الإفساد المذكورتان وما هما وعداهما؟ وما هو الكتاب الذي ورد فيه ذكر هذا القضاء إلى بني إسرائيل؟ وهل نجد فيما بين أيدينا اليوم من كتب بني إسرائيل إشارة إلى مرتي الإفساد أو إلى الإسراء؟

وماذا كان أثر معرفة بني إسرائيل لهذا القضاء الرباني إليهم على الفكر الإسرائيلي؟ وكيف انعكس ذلك على حركة بني إسرائيل في التاريخ؟

إن فهم آيات القرآن واجب شرعي على المخاطبين به أياً كان زمانهم ومكانهم، ولكن فهم تأويل هذه الآيات(٣) بالذات يكتسب اليوم أهمية خاصة في إطار واقع المواجهة القائمة بين المسلمين وبني إسرائيل، وسنحاول في هذه الفصول أن نجيب على هذه الأسئلة المطروحة، والله المستعان والمعين.

الفصل الأول

مرتا إفساد بني إسرائيل

ما هما مرتا إفساد بني إسرائيل اللتان جاء ذكرهما في مقدمة سورة الإسراء وما هما وعداهما؟

اختلف المفسرون القدامى في ذلك وأخذوا يبحثون عنهما في التاريخ الذي سبق نزول القرآن وهذا عائد إلى المعلومات التاريخية التي توفرت لهم عن بني إسرائيل والتي كانت مبتورة وناقصة بل وموجهة ذلك إنها استمدت في الغالب من رواية أهل الكتاب أنفسهم ـ الإسرائيليات ـ وعائد كذلك إلى واقع بني إسرائيل في زمنهم «زمن المفسرين» حيث لم يكن لهم دولة ولا نفوذ في الأرض ولا كان واقع حالهم يوحي بأنه ستكون لهم دولة ونفوذ.

ولعل أفضل ما قيل فيهما هو أن وعد الإفساد الأول ـ أي وعد عقابه كما ذكر الزمخشري والشوكاني في تفسيريهما ـ كان على يد الآشوريين والبابليين وانتهى بتدمير بيت المقدس في القرن السادس قبل الميلاد. وأما وعد المرة الثانية فكان على يد الرومان وانتهى بطرد اليهود من بيت المقدس في القرن الثاني الميلادي. وقد تناسب هذا التأويل مع ما كان عليه اليهود أيام المفسرين

الذين تعرضوا لهذه الآيات من الذلة والصغار ولكن لم يعد يتسق مع واقع العلو الكبير الذي يعيشونه اليوم. يقول الشيخ ابن عاشور في تفسيره (لم يعدهم بعد المرة الثانية إلا بتوقع الرحمة ـ إن أحسنوا ـ دون رد الكرة فكان ايماء إلى أنهم لا ملك لهم بعد هذه المرة). كما أن هناك اضطراباً لدى المفسرين في تحديد ماهية الإفسادين اللذين حق بهما العقاب على بني إسرائيل كقولهم أن الإفساد الأول كان قتل زكريا والثاني قتل يحيى بن زكريا مع أن بين العقوبتين بمقتضى التفسير السابق ما يزيد على السبعة قرون، هذا مع العلم بأن المفسرين القدامى ـ وحتى بعض الكتاب المحدثين ـ يخلطون بين زكريا النبي والد يحيى عليهما السلام والذي ورد ذكره في القرآن الكريم والذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد وبين زكريا صاحب السفر المسمى باسمه في العهد القديم والذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد وكتب سفره المذكور بعد السبي البابلي الأخير.

والواقع أن عذاب بني إسرائيل قائم إلى يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ [الأعراف: ١٦٧]، ولكن وبمقتضى علو بني إسرائيل اليوم من جديد وبمقتضى السياق القرآني فقد قدم عدد من العلماء تأويلاً جديداً لمرتي الإفساد الواردتين في سورة الإسراء.

الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه(اليهود في القرآن)،

واستناداً إلى عطف جملة ﴿ولتعلن علواً كبيرا﴾ على جملة ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ يرى أن هذا الإفساد ناتج عن العلو ومرتبط به وأن صفة العلو إن صدقت عليهم عندما ضربهم البابليون والآشوريون حيث كانت لهم مملكتان فإنه لا يصدق عليهم عندما ضربهم الرومان حيث كانوا جماعات ممزقة متمردة، ويرى كذلك أن المرتين جاءتا بلفظ (إذا) التي تفيد التعلق بالمستقبل وقت نزول القرآن ولكن أفعال وعد المرة الأولى جاءت بصيغة الماضي (بعثنا ـ جاسوا) والثانية بما يدل على المستقبل (ليسوؤا ـ ليتبروا..) ولذلك يرى أن المرة الأولى كانت قد وقعت والثانية لم تكن وقعت وقت التنزيل. وحيث أن وعد المرة الثانية سيكون فيه دخول المسجد كما دخلوه أول مرة فإن هذا لا ينطبق إلا على المسلمين لأن السجود من شعائر الإسلام وبه نعت محمد ﷺ وأصحابه في التوراة كما ذكرته سورة الفتح ولأن المسلمين دخلوا المسجد أول مرة زمن عمر رضي الله عنه ولذلك يرى أن وعد العقوبة الثانية وفيها الدخول الثاني للمسجد هي إشارة وبشارة إلى صحوة إسلامية جديدة ستخرجهم مجدداً من المسجد الأقصى إن شاء الله.

ويرى الأستاذ محمد المجذوب في مقال له في مجلة الوعي الإسلامي سندين شرعيين لهذا التأويل الذي يتعلق كما رأينا بوعد المرة الثانية : السند الأول هو الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود

فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» والسند الثاني هو تفسير قوله تعالى في الآية(١٠٤) من سورة الإسراء نفسها ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ اتفق المفسرون على أن الهاء في ﴿من بعده﴾ تعود إلى فرعون أي بعد اغراقه وأن الأرض تعني الشام أو بيت المقدس أما وعد الآخرة فأغلب المفسرين القدامى على أنه يوم القيامة وقال بعضهم إنها الكرة الأخرة التي ذكرت في مطلع السورة ـ راجع البيضاوي والشوكاني ـ وهذا ما يراه الأستاذ المجذوب كذلك بمقتضى تكرار نفس المقطع ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ في هذه الآية والآية الثامنة من السورة نفسها فيكون هذا إشارة إلى عودة اليهود للاجتماع في الأرض ﴿لفيفا﴾ أي مختلطين جماعات من قبائل شتى والأرض هي فلسطين كما أسلفنا.

ويرى الأستاذ الشيخ أسعد التميمي في كتابه (زوال إسرائيل حتمية قرآنية) إن وعدي مرتي الإفساد بعد نزول القرآن وليس قبله ذلك أنهما جاءا بكلمة ﴿إذا﴾ التي تفيد ما يستقبل من الزمان وأن كلمة عباد إذا أضيفت إلى لفظ الجلالة فهي في موطن التشريف ولا يوصف بها البابليون والآشوريون الذين كانوا وثنيين، وعليه فإن هذا الوصف ينطبق على صحابة رسول الله ﷺ الذين قاتلوا اليهود في المدينة وخيبر وتيماء وكان هذا هو وعد المرة الأولى، وقوله تعالى عن الوعد الأول ﴿وكان وعداً

مفعولاً﴾ يشير إلى أن تدمير العلو الأول تم في عهد النبي ﷺ والوحي ينزل، وأما المرة الثانية والتي جاءت بثم ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ فإن ثم تعني العطف مع التراخي، والكرة الدولة والسلطة ولم تقم لليهود سلطة على البابليين ولا يمكن أن تقوم مجدداً لأنهم انقرضوا إنما قامت على أبناء المسلمين الأوائل بعد أربعة عشر قرناً، وقد تحقق اليوم أيضاً لبني إسرائيل قوله تعالى ﴿وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾ ويضيف الشيخ التميمي بأن الفاء في قوله تعالى ﴿فإذا جاء وعد الآخرة..﴾ للتعقيب ولم يستخدم ﴿ثم﴾ التي تفيد التراخي وذلك للسرعة في حصول المقصود.. وهو نصر الله للمسلمين على بني إسرائيل(٤).

وأنا أتفق مع هذا التفسير لهوية العباد المذكورين في الآيات وتأويل الوعدين، وأزيد ذلك ايضاحاً، فلفظتا عبيد وعباد كلاهما جمع لكلمة عبد إلا أنه غلب على كلمة العباد أنها تدل على جمع العبد الذي هو عابد وكلمة العبيد أنها تدل على جمع العبد الذي هو مسترق كما يقول الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، ولفظ عباداً لنا يشي بأنهم عباد مؤمنون بل مقربون إلى الله عز وجل وهذا لا ينطبق قطعاً على الآشوريين والبابليين وقد كانوا عبدة أوثان وكواكب. بل ينطبق على وصف أصحاب رسول الله ﷺ كما جاء في التوراة وحكته سورة الفتح ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم

من أثر السجود﴾ ويشتمل وصفهم هذا على الشدة ﴿أشداء على الكفار﴾ ﴿أولى بأس شديد﴾ وعلى السجود ﴿وليدخلوا المسجد﴾ وينطبق بالدرجة الأولى على سيدهم وقائدهم رسول الله ﷺ والذي جاء الوعد به إلى موسى عليه السلام بعد أن أخذت الرجفة بني إسرائيل ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾[الأعراف:١٥٧] فاتباعه هو الرحمة التي أعطيت لهم ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ ووصفه في الإسراء بأن الله أسرى ﴿بعبده﴾ هو صلة موضوعية وتاريخية بين الحديث عن الإسراء وعن بني إسرائيل كما سنبين في الفصلين الرابع والخامس.

ثم تشير الآيات بعد جوسهم خلال الديار ـ أي ترددهم فيها لطلب بني إسرائيل للغارة والقتل ـ إلى رد الكرة عليهم ثم إنهم هم أنفسهم سيسوؤون وجوه اليهود ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة وأقول هم أنفسهم وليس جماعة أخرى كما ذهب إليه من قال بأن وعد المرة الأولى كان على يد الآشوريين والبابليين لأن النص في الآيات يستعمل ضمير الغائب من بعد ذكر ﴿عباداً لنا﴾ وهذا الضمير لابد أن يعود على مذكور قبله وافتراض أن هذا الضمير يعود على مقدر لم يذكر من قبل ليس له ما يسنده فهو يعود إذن على هؤلاء العباد وهم المسلمون أمة محمد ﷺ.

يقول الشيخ ابن عاشور في تفسيره (وضمير كما دخلوه عائد على العباد المذكورين في المرة الأولى بقرينة اقتضاء المعنى

مراجع الضمائر).

وقد أخرج محمد ﷺ وأصحابه اليهود من ديارهم كما جاءت بهذا اللفظ مرتين في القرآن الكريم ففي سورة الحشر عن بني النضير ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾ الآية ٢ وفي سورة الأحزاب عن بني قريظة ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها﴾ الآية ٢٧ وتم اخراجهم نهائياً من بيت المقدس زمن عمر رضي الله عنه ويرى الشيخ التميمي أن نص العهدة العمرية على ألا يسكن ايلياء (بيت المقدس) أحد من اللصوص واليهود هو بشرط اشترطه عمر رضي الله عنه على النصارى وليس شرطاً شرطوه هم لأنفسهم كما يظن البعض ذلك أن كبار الصحابة كانوا على علم من رسول الله ﷺ وفهم لخطر اليهود على هذه الأرض.

وعليه يكون الإفساد الأول لبني إسرائيل في الأرض ـ أي فلسطين ـ قد استمر طويلاً منذ وفاة سليمان عليه السلام تاركاً لهم أمانة الدولة والمسجد، فانقسموا دولتين وصنع يربعام مؤسس دولة الشمال عجلين من ذهب وقال لشعبه هذه الهتكم لكيلا يزوروا القدس عاصمة الجنوب ثم تبعتهم مملكة يهوذا في الجنوب فأقاموا هم أيضاً المشارف والأنصاب وعبدوا البعل والعشتاروت وقتلوا أنبياءهم وحرفوا كتبهم وحاولوا قتل المسيح عليه السلام وكان آخر أنبيائهم وكانت مهمته أن يبين لهم حقيقة موقفهم من الله ونفاقهم الكاذب وأن النبي الموعود من بني اسماعيل قد جاء

وقته وبذلك يجيء ملكوت الله الموعود وأن عليهم اتباعه وحيث أنه جاءهم بما لا تهوى أنفسهم فقد كذبوه وأرادوا قتله ولما تشتتوا بهدم بيت المقدس استقر جزء منهم في جزيرة العرب طلباً للنبي الخاتم الموعود والذي كانوا يستفتحون به على جيرانهم من العرب ليقتلوهم به قتل عاد وارم ـ حلم بني إسرائيل من القدم ـ فلما جاء هذا النبي الخاتم يدعوهم للدخول في دين الله مثل غيرهم من عباد الله خاب أملهم وصدم غرورهم وكذبوه وحاولوا قتله أيضاً، وهكذا حلت عليهم عقوبة الافساد الأول، ولا شك أن محمداً ﷺ وصحبه كانوا عباداً لله أولى بأس شديد وجاسوا خلال ديارهم ـ ولم تقل الآية الأرض أي فلسطين ـ وطردوا من طردوا واستأصلوا من استأصلوا.

ولذلك جاء وعد المرة الأولى بلفظ إذا التي تفيد المستقبل بالنسبة لوقت التنزيل كما وجاءت أفعالها في صيغة الماضي لقرب تحققها وجاء قوله تعالى ﴿وكان وعداً مفعولا﴾ ليفيد نفس المعنى أما المرة الثانية فجاءت فيها ﴿ثم﴾ التي تفيد التراخي، وهكذا وبعد أربعة عشر قرناً عادت اليهود الكرة على أمة محمد ﷺ وأصبحوا أكثر نفيرا أي ناصراً يمكن استنفاره وليس أكثر عدداً. وإذا كان مضمون الافساد الأول هو تكذيب الرسل ومحاولة قتلهم فإن مضمون الافساد الثاني هو تأليب البشرية والعمل الدؤوب في محاولة القضاء على الرسالة الخاتمة واحتلال المسجد الذي ورثته هذه الرسالة.

وقد جاء تفسير الوعدين كليهما في سورة الإسراء نفسها، فعن الوعد الأول تقول الأيتان (١٠٧، ١٠٨) ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ الوعد بمحمد الرحمة المهداة والذي طهر الجزيرة من الذين تمردوا على الرحمة.. وعن وعد الآخرة تقول الآية(١٠٤): ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾.

وقد أخرجهم رسول الله ﷺ من الجزيرة ـ وقد أوصى بأن «لا يبقى دينان في جزيرة العرب»* إلى الأرض لأول الحشر قال المفسرون إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام عند مبدأ الحشر المقدر لهم لقتالهم وروى ابن جرير الطبري وابن كثير في تفسيريهما أن رسول الله ﷺ لما أجلى بني النضير قال «هذا أول الحشر وأنا على الأثر»، وهكذا قام عليه السلام بتحقيق الوعد الأول وأشار إلى أمته بتحقيق الوعد الثاني وقد تم الحشر وبفاء التعقيب يتم وعد الآخرة إن شاء الله ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾.

---

* روى احمد في المسند ومالك في الموطأ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال «لا يبقين دينان أو لا يجتمع دينان في جزيرة العرب».

الفصل الثاني

الكتاب الذي ورد فيه القضاء إلى بني إسرائيل

بينا في الفصل السابق أن المرة الأولى لإفساد بني إسرائيل في الأرض امتدت منذ وفاة سليمان عليه السلام وإلى زمن محمد ﷺ وأن تمام وعد عقابها كان على يد محمد ﷺ وأصحابه، وأن مرة الإفساد الثانية هي التي نعيشها اليوم حيث ردت الكرة لبني إسرائيل على المسلمين وأن وعد عقابها سيكون على يد أمة محمد ﷺ مجدداً.

والآن فما هو الكتاب الذي جاء فيه هذا القضاء إلى بني إسرائيل؟ ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ قال بعض المفسرين أنه اللوح المحفوظ وقال بعضهم أنه التوراة ويؤيد هذا الرأي الأخير أن هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ أي التوراة كما وأن صياغة النص تؤيد ذلك، يقول الشيخ ابن عاشور في تفسيره «ضمائر الخطاب في هذه الجملة مانعة من أن يكون المراد بالكتاب المعني في هذه الآية ـ اللوح المحفوظ».

ولا يمكننا طبعاً أن نعتمد على الكتب التي يظهرها بنو إسرائيل اليوم لنفهم السياق التاريخي الذي ورد فيه هذا القضاء ذلك أن بني إسرائيل تلاعبوا بكتبهم المقدسة كما هو معلوم بالضرورة من القرآن الكريم وقد تلاعبوا بوجه خاص فيما يتعلق بنبوءة موسى عليه السلام

عن افسادهم وعن مجيء النبي الخاتم من بني إسماعيل وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل في الفصول القادمة إن شاء الله، ولكننا في هذا الفصل نريد أن نستجلي من القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه السياق التاريخي الذي جاء فيه هذا القضاء إلى بني إسرائيل واعلنه عليهم موسى عليه السلام.

إن من الطبيعي أن يكون خطاب موسى لقومه بوعد الإفسادين في الأرض قد جاء بعد إفساد بني إسرائيل في سيناء فكان اخباره عليه السلام لهم بأنهم سيدخلون الأرض ويملكونها ثم يفسدون فيها كما أفسدوا في سيناء وأنهم بإفسادهم ذلك ستنزع منهم الولاية على الأرض المباركة ـ فلسطين ـ وتعطى لغيرهم وإن ذلك سيكون فرصة مجددة من الله عز وجل ليتوبوا في كل مرة ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾.

وقد ابتدأ افساد بني إسرائيل في سيناء مبكراً بمقتضى فاء التعقيب في قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ الآية ١٣٨. وحيث لم يستطع بنو إسرائيل بماديتهم أن يؤمنوا بإله لا يحسونه فقد طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة وكان ذلك قبل اتخاذ العجل ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البياتات﴾. النساء ١٥٣، وذهب موسى لميقات ربه وتلقى الألواح فعبد بنو إسرائيل العجل ﴿وإذ واعدنا موسى

أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ [البقرة: ٥١]. وراجع الأعراف ١٤٢–١٥٤. واختار موسى سبعين رجلاً من قومه ليعتذروا عن عبادة أصحابهم العجل ـ ذلك أن الذين عبدوا العجل فعلا كان جزاؤهم القتل وهنا أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا أصحابهم عن عبادة العجل في غياب موسى عليه السلام، وهناك تضرع موسى إلى الله أن يعفو عنهم فعفا عنهم بعد أن أخذ عليهم العهد باتباع النبي الذي ستكون الصفة المميزة له ولأمته أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وهي الصفة التي لم يستطع بنو إسرائيل أن يحملوها فلعنوا من بعد على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ [المائدة: ٧٩] وهذا سر افسادهم الجماعي في الأرض ولنستمع إلى السياق القرآني العظيم ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا أن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بأياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ [الأعراف : ١٥٤–١٥٧]. وهدنا أي تبنا وبهذا سموا يهودا ليذكروا توبتهم ولكنهم لم يذكروها إلا قليلا. ارسال هذا النبي الأمي إذن هو الرحمة التي وعدوا بها بسبب توبتهم ﴿عسى ربكم أن

يرحمكم﴾ وفي هذا السياق نميل إلى الاعتقاد والله أعلم بأنهم قد اعلموا بأنهم سيدخلون الأرض المباركة ويفسدون فيها ذلك أنه حين طلب منهم موسى عليه السلام بعد ذلك أن يدخلوا الأرض المباركة ذكّرهم بأن الله عز وجل وعدهم بها وأنه وعدهم أيضاً بأن سيكون منهم ملوك وأنبياء، ونستمع إلى السياق القرآني من سورة المائدة ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ ولكنهم رفضوا الجهاد لدخول الأرض فكتب عليهم التيه وكان ذلك آخر عهدهم بموسى عليه السلام استجابة لدعائه عليه السلام أن يفرق الله بينه وبينهم ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

وفيما بين هذين الفصلين من ملحمة بني إسرائيل في سيناء أي بين الرجفة وبين القضاء عليهم بالتيه كان رفع الطور فوقهم وأخذ ميثاقهم بالسمع والطاعة ولكنهم تولوا وقالوا سمعنا وعصينا ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا﴾ [البقرة: ٩٣]. ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم من بعد ذلك﴾ [البقرة ٦٣-٦٤] ولعل آخر ما قاله لهم موسى هو ما روته آيات سورة إبراهيم ٦-١٤ ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا

نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم .. وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ وهذا يشي بتهديدهم لموسى وبمفاصلته لهم وبايذائهم إياه مما تشير إليه أيضاً آية الصف(٥) وهي قوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾. وآية [الأحزاب: ٦٩] وهي قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ وفي الواقع فإن كتبة العهد القديم اضمروا الحقد على موسى فقلبوا الوضع فيما كتبوا فجعلوا أن الله يدخل بني إسرائيل الأرض ويحرمها موسى وهارون بسبب ذنوبهما، اي تبكيتهما بني إسرائيل على معاصيهم، راجع سفر التثنية ٥٢,٣٢ حيث يقول : «لأنكما تعديتما عليّ فيما بين بني إسرائيل عند ماء خصومه قادش في برية سين ولم تقدساني بين بني إسرائيل فأنت تنظر إلى الأرض التي أعطيتها لبني إسرائيل مقابلة ولكنك لا تدخلها».

هذا التقرير للسياق التاريخي الذي ورد فيه القضاء إلى بني إسرائيل يفيدنا لتقصي ما يمكن أن يكون الكتبة منهم قد تركوا من أثر له في الأسفار المنسوبة إلى موسى وهذه الإشارة الأخيرة تفيدنا في

استجلاء طرق تحريفهم واسقاطهم لأغراضهم وأمانيهم على الكتب التي استحفظوا عليها.

على أنني أعتقد أن هذا القضاء إلى بني إسرائيل قد أعيد ذكره في الزبور الذي أنزل على داود عليه السلام، ذلك أن افساد بني إسرائيل جاء بعد التمكين لهم في الأرض، وكان ذلك زمن داود عليه السلام، فدخولهم فلسطين بعد التيه إنما كان عن طريق التسلسل والاستيطان ولم يذكر القرآن الكريم لهم جهاداً قبل طالوت فقد طلبوا من نبي لهم أن يجعل لهم ملكاً يجاهدون معه لأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم أي بعد أن استوطنوا أجزاء من الأرض وقد تردد نبيهم في الاستجابة لطلبهم لتخلفهم المعروف عن الجهاد مع موسى عليه السلام وعلى هذا يمكننا اسقاط الملحة اليوشعيه من التاريخ باعتبارها فقط من أمانيّهم كما وأن هناك تناقضاً صارخاً في كتبهم بين وصف القوة التي غزا بها يوشع بن نون أرض فلسطين وتوزيعها عليهم ثم حالهم الضعيفة والممزقة بعد ذلك زمن القضاه.

والزَبر هو الجمع والزبور مصدر بمعنى التجميع أو الكتابة حيث الكتابة هي جمع الأحرف والكلمات والزُبَر هي القطع التي تجمع كما في قوله تعالى ﴿آتوني زبر الحديد﴾ [الكهف: ٩٦] وقد جاء الزبور الذي أوتيه داود على شكل قطع يمكن انشادها ﴿يا جبال أوبي معه﴾ [سبأ: ١٠] ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن﴾ [الأنبياء: ٧٩]، ولم يكن في الزبور تشريع جديد إذ كان داود عليه السلام مؤكدا ومنفذاً لشريعة موسى وإنما احتوى الزبور على السنة الالهية في الخلق والإنسان وعلى التسبيح والحمد. والثناء لله عز وجل.

وقد جاء ذكر الزبور ثلاث مرات في القرآن الكريم. أولها في سورة النساء [١٦٣ ـ ١٦٤] وجاءت على النسق التالي ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ بهذه الموازاة بين ﴿وآتينا داود زبورا﴾ وبين ﴿وكلم الله موسى تكليما﴾ والتي تشي بالعلاقة بين النبيين وبين الكتابين، والمرة الثانية جاءت في سورة الأنبياء ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء:١٠٥] وهذه إشارة واضحة إلى القضاء الوارد في سورة الإسراء إلى بني إسرائيل عن الأرض والعباد الصالحين. والمرة الثالثة جاءت في سورة الإسراء نفسها ﴿وآتينا داود زبورا﴾ [الإسراء:٥٥]. وهكذا جاء في السورة نفسها ذكر كتابي موسى وداود ولم يرد اسم نبي آخر فيها إلا اسم نوح عليه السلام (وسنرجع إلى دلالة ذلك في الفصل الخامس) ليدل والله أعلم على أن القضاء إلى بني إسرائيل جاء على لسان النبيين عليهما السلام. وأخيراً فلعل لعن الكفرة من بني إسرائيل الذي جاء على لسان داود جاء في الزبور وهذا يشمل لعن الذين كفروا زمن داود نفسه والذين جاء القضاء إلى بني إسرائيل بأنهم سيكفرون ويفسدون في الأرض من بعد داود وقد جاء في لعنه لهم صفاتهم التي لعنوا بسببها ولنستمع إلى السياق القرآني من سورة المائدة ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما

قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ [الآيات ٧٨-٨١]. وترد هنا ملاحظتان فالمنكر الأكبر الذي لعنوا لأجله هو موالاة الكافرين والتي يثبت القرآن أنها تتنافى مع الإيمان بالله وهذا يرجعنا إلى أساس الإيمان وأساس الكتاب الذي أوتي موسى ﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلا﴾ وبهذا تكتمل الحلقة الموضوعية في القضاء إلى بني إسرائيل بين الهدى في ألا يتخذوا من دون الله وكيلا وبين الإفساد في تولي الذين كفروا، والملاحظة الثانية أن تولي الذين كفروا لم يعد ديدن بني إسرائيل فقط وإنما اتبعتهم في ذلك هذه الأمة أيضاً كما ذكر ذلك رسول الله ﷺ (لتتبعن سنن الذين من قبلكم) وعليه فلن تفصل المعركة بيننا وبينهم حتى يعود ولاؤنا خالصاً لله ورسوله وكتابه.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ [الممتحنة: ١٣].

الفصل الثالث

كتب بني إسرائيل كما هي اليوم

بينا في الفصل السابق أن القضاء إلى بني إسرائيل بإفسادهم في الأرض مرتين والذي ذكرته سورة الإسراء قد جاء في التوراة المنزلة على موسى وفي الزبور المنزل على داود عليهما السلام.

والآن فهل نجد فيما ينسبه اليهود من كتب إلى موسى وداود عليهما السلام إشارة إلى هذا القضاء ؟ لقد تلاعب اليهود في كتبهم المقدسة وقد قرر القرآن ذلك قديماً ثم أثبتته الدراسات النقدية الحديثة التي قام بها اليهود والنصارى أنفسهم متاثرين بالتقارير القرآنية ولذلك فلا بد قبل التعرض للإجابة على السؤال المطروح من دراسة حال هذه الكتب التي بين أيدينا اليوم والمنهجية التي يجب التعامل بها مع هذه الكتب. وهذا موضوع واسع ومتشعب وذو أهمية بالغة بالنظر إلى ما يطرح اليوم عن حوار الأديان وصراع الحضارات وسنخصص هذا الفصل للإشارة إلى أمهات المسائل في هذه القضية.

فأولاً: لقد قرر القرآن الكريم بشكل مسهب وقاطع أن أهل الكتاب قد قاموا بالتلاعب في كتبهم المقدسة فقاموا بتحريفها في ألفاظها ومعانيها ﴿يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾[البقرة:٧٥]. ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾[المائدة ٤١] وزادوا فيها ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون

هذا من عند الله﴾ [البقرة :٧٩] وأخفوا كثيراً منها ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً منها﴾ [الأنعام:٩١] وقدموا وأخروا وغيروا مواضع الكلم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [النساء: ٤٦] ومارسوا الكتمان وتحريف الكلم عن مواضعه ضمن وسائل أخرى لإلباس الحق بالباطل ﴿لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [آل عمران:٧١] ورغم تحريفها بما يناسب أهواءهم فقد أخفوها عن عامتهم وجعلوا دراستها حكراً على مجموعات منهم والغزوها لكيلا تتضح لغير الذين يرتضون أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

وثانياً : قد بين القرآن الكريم أهداف تحريفهم ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ [البقرة ٧٩] ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ [البقرة: ٨٦]، وهذا الثمن هو تسلط الأحبار والرهبان على قومهم وفي المقابل أوهموا عامتهم أنهم مختارون لذواتهم وعرقهم وبرروا لهم الكذب على الآخرين واستغلالهم وقد ساروا في هذه اللعبة المزدوجة أشواطاً بعيدة حتى صدقوا أنفسهم. ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ [آل عمران:٢٤] ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ٧٥] ﴿الم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء﴾ [النساء: ٤٩]، وهكذا اقترن قولهم الإثم بأكلهم السحت ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ [المائدة: ٦٣] ﴿إن كثيراً من الأحبار

والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [التوبة: ٣٤]، وامعاناً في الكذب ووقاية لمصالحهم من أن تمس عندما يظهر النبي الموعود من غيرهم ـ من بني إسماعيل ـ حرفوا النبوءات وقرروا أن لا نبي إلا منهم بل وقتلوا أنبياءهم الذين ذكروهم بحقيقتهم وحقيقة النبي الذي سيجيء من غيرهم. ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين، وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة: ٨٩-٩١].

وثالثاً: وبناءً على ذلك فإن موقفنا نحن المسلمين من التراث الديني لأهل الكتاب يتمثل في عدم اعتماد هذا التراث كمصدر عقيدي ذلك أن الله عز وجل أنعم علينا بالقرآن وتكفل بحفظه وجعل معجزته في نصه بحيث يكون حجة على الناس إلى يوم الدين بخلاف معجزات الأنبياء السابقين التي انقضت في زمانهم والذين استحفظت أممهم على كتبهم ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ [المائدة: ٤٤] فلم يقوموا بهذا الحفظ بل سرعان ما بدلوا وغيروا استجابة لأهوائهم ومصالحهم، ولذلك فنحن نعرض ما جاء في هذا التراث على كتاب الله فما وافقه أقررناه وما خالفه رفضناه وما لم

يرد فيه نص في القرآن توقفنا فيه لقوله ﷺ (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم)* ولا شك أن مالم يرد فيه نص فإن معرفته لا تقدم ولا تؤخر في مقاصد الدين لأن القرآن الكريم لم يفرط فيه بشيء يهم الإنسان في أمر دينه ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام: ٣٨].

رابعاً: فإنه للأسف ورغم تحذير رسول الله ﷺ لم يتحرج كثير من علماء المسلمين من الرواية عن بني إسرائيل وإذا كانوا قد تحرزوا فاسندوا الروايات فإن ذلك لم يمنع أن يكون لها أثر في تاريخ الفكر الإسلامي، بقول ابن خلدون في مقدمته: (والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية فإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهود فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم... فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم!! فتلقيت بالقبول من يومئذ).

وتستوقفنا ملاحظتان دقيقتان للعلامة ابن خلدون هما في غاية الأهمية:

---

* رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة عن أبي هريرة.

الأولى: تساهل علماء المسلمين الأوائل في نقل القصص عن بني إسرائيل خلافاً لما له علاقة بالأحكام الشرعية في تصور أن القصص أو تفاصيلها ليس لها أهمية خاصة في التميز في الدين وفي هذا اغفال للمعنى الرمزي الكامن خلف القصص وخاصة إذا علمنا أن أحبار اهل الكتاب قد طوعوا تفاصيل القصص لتناسب أهواءهم وغاياتهم مما كشفت عنه الدراسات النقدية الحديثة ونستطيع أن نمثل لذلك بابتداع أخ ليعقوب أسموه العيص حرم من حق البكورية لكي يجعلوا اهمالهم لإسماعيل في العهد الإبراهيمي مقبولاً ومكرورا وتركيزهم على أن الذبيح هو اسحق وان أم إسماعيل كانت جارية وقد نقلت هذه القصص كما هي في كتب علمائنا الأقدمين وسنفصل في الفصل الخامس تحريفهم لأصل معنى كلمة إسرائيل والهدف من ذلك.

والثانية: أنهم كانوا ينقلون عن أهل الكتاب دون أن يتصلوا بالوثائق الأصلية لأنها لم تكن مترجمة عن العبرية وقد روى البخاري عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. وبغض النظر عما إذا كان اطلاع مسلمة أهل الكتاب كاملاً ودقيقاً، كما وبغض النظر عن دوافعهم وحقيقة إسلامهم فإن هذا يعني أن علماء المسلمين لم يكن لديهم تصور شامل ومتكامل لكتب أهل الكتاب وإنما كانت لديهم عينات عشوائية أو على الأغلب مختارة ولذلك فلم يدركوا الخطورة الحقيقية للتراث الكتابي والخبث الكامن في طرائق تحريفه وهذا يفسر موقفهم منها. يقول الأستاذ أحمد أمين في ضحى الإسلام «اختلفت أنظار المسلمين إلى التوراة على أقوال ثلاثة فقال قوم إنها كلها أو أكثرها

مبدلة مغيرة ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض ومن أشد من ذهب إلى هذا الرأي ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل وذهبت طائفة أخرى إلى أن التبديل وقع في التأويل لا في التنزيل.. وذهبت طائفة ثالثة إلى أنه قد زيد فيها وغير الفاظ يسيره ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه) وذكر أدلة كل طائفة بما لا يتسع له المقام هنا. والواقع أنه لو توفرت لهم نسخ كاملة عما يسمى بالكتاب المقدس لاتفقوا على رأي ابن حزم والذي اطلع بدون شك على التراث الكامل لأهل الكتاب كما يدل عليه كتابه المذكور والذي كان له أثر مباشر في ولادة الدراسات النقدية للكتاب المقدس في أوروبا.

خامساً: يمكن القول أن أبحاث نقد الكتاب المقدس التي قام بها الأوروبيون قد ابتدأت في الأندلس تحت تأثير الفكر الإسلامي وقد حاول الفلاسفة اليهود الأندلسيون أمثال ابن ميمون أن يجيبوا على طعن المسلمين في النصوص التوراتية التي تجسم الخالق عز وجل - بل وتمثله على أنه عفريت من العفاريت كما في قصة صراع يعقوب مع الله سبحانه والتي ينسبون إليها تسمية يعقوب بإسرائيل أى آسر الله أو مصارع الله (!) في زعمهم - ورغم محاولات ابن ميمون وأمثاله فإن الشك في نسبة الأسفار إلى الله ونسبتها إلى مؤلفيها كان قد ابتدأ ثم انتقل من أسبانيا إلى أوروبا ويمكننا أن نمثل لذلك بالفيلسوف الشهير سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) وهو يهودي ولد في هولندا من أسرة هاجرت من أسبانيا تحت وطأة محاكم التفتيش، وقد قام اسبينوزا بتطبيق المنهج الديكارتي الصارم على الكتب المقدسة في كتابه

(رسالة في اللاهوت والسياسة) وبعد أن حاول اليهود فاشلين استمالته بالمال قامت الكنيسة اليهودية في هولندا بحرمانه وطرده من الدين.. ومن أهم نتائج الدراسات النقدية الحديثة التوصل إلى أن الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى هي نتيجة أعمال متتالية ابتدأت في مملكة يهوذا (النص اليهوي حوالي ٨٥٠ قبل الميلاد) ثم في مملكة الشمال (النص الإيلوهيمي حوالي ٧٥٠) ثم أضيف إليها نص التثنية زمن اصلاح يوشيا وأضيف إليها النص الأحباري في المنفى وقام عزرا (بمراجعة) هذا كله وتجميعه بعد العودة من الأسر في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد. يقول الأستاذ إسماعيل الفاروقي في كتابه (أصول الصهيونية في الدين اليهودي): (ويرجع أمر اكتشاف هذه العناصر وتثبيتها إلى العلماء فون جراف وكوهن وويلهاوزن في أواسط القرن التاسع عشر، فهؤلاء دفعهم حبهم للاستطلاع لدراسة القرآن الكريم بحثاً وراء ما يلقي الضوء على العهد القديم الذي كانوا يدرسونه بقصد تفهمه تفهماً علمياً نقدياً تحليلياً. وفي دراستهم للقرآن الكريم تشبعوا بالمبدأ القرآني القائل بأن بني إسرائيل تلاعبوا في كتابهم المقدس وأنهم حرفوه حاذفين منه ما حذفوا ومضيفين ما أضافوا لطمع غير خلقي في نفوسهم فزعزع هذا المبدأ ما نشأوا عليه من إيمان بأن التوراة هي نفسها في كل حرف من حروفها من صنع الله، وأخذوا عندئذ بدلاً من الحيرة في تفسير النزعات المختلفة التي تنم عنها نصوص التوراة يتبينون مختلف الأيادي وراء هذه النصوص، فراحوا يبحثون عن أصولها وعن الأحوال التاريخية التي أدخلت هذه المواد في التوراة تحت ظروفها فكانت علوم التوراة النقدية التي عرفها القرن الأخير).

وقد قطع الأوروبيون شوطاً واسعاً في نقد الكتاب المقدس بعهدية مستعنين بدراسة النصوص باللغات القديمة وبمقارنتها بالمعطيات الحفرية للتاريخ القديم وأصبح لنقد الكتاب المقدس منهجية محددة ولا يمكننا هنا الدخول في التفاصيل لضيق المقام وخلاصة القول أن هذه الأبحاث أثبتت أن القليل جداً من نصوص الكتاب المقدس يمكن نسبته حقاً إلى من تنسبه إليهم والباقي تجمع مع الزمن من كتابات الكهنة والأحبار ثم لعبت فيه الأيادي بالزيادة والنقص والتحوير. وحتى المتدينين من اليهود والنصارى اضطروا بسبب وضوح الأدلة إلى القول بان الوحي في هذه النصوص هو الهام للكتبة بالمعاني وليس باللفظ ومع هذا (الإلهام) فقد أحصوا خمسين ألف خطأ فيها(٥).

وللأسف فرغم أن هذه الدراسات نشأت أساساً عن تأثير القرآن الكريم والمفكرين المسلمين المتأثرين بالقرآن الكريم فلا يزال كثير من كتاب المسلمين يتعاملون مع نصوص الكتاب المقدس بإعطائها مرجعية محددة دون مراجعة نتائج البحث النقدي مما يؤدي إلى أن تظهر كتاباتهم بمظهر السطحية والتهافت (راجع الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب للتمثيل والرد على ذلك) وقد دفع البعض حرصه على تحقيق حق المسلمين في فلسطين إلى التهجم على الأنبياء مثل داود عليه السلام (وخاصة في مناسبة ما قاله شمعون بيريز في الكنيست الإسرائيلي من انهم في إسرائيل لا يتبعون كل ما فعله داود من وراء الأساطيح) دون أن يلقوا نظرة واحدة على نتائج الأبحاث الحديثة حول قصة داود وأوريا بل دون انتباه إلى أن داود عليه السلام نبي مكرم عند الله وقد أمر الرسول ﷺ بالاقتداء بهديه ضمن مجموعة

من الأنبياء ذكرتهم آيات الأنعام: [٨٣-٩٠] كما لا يزال البعض يحاول أن يخرج تفسيرات مجازية لتجسيمات الكتاب المقدس لذات الله تعالى على طريقة ابن ميمون (راجع كتاب الله وصفاته في التوراة والإنجيل للشيخ أحمد حجازي السقا)، ومن ناحية أخرى ينساق آخرون وراء بعض الكتاب الذين وانطلاقاً من تناقضات الكتاب المقدس توصلوا إلى أنه مجموعة من الخرافات وإلى نفي قصص الأنبياء من أصلها بينما هذه الأصول ثابتة في القرآن الكريم ومن هؤلاء الكتاب الأستاذ شفيق مقار النصراني وهذا لا ينفي قيمة كتاباته في الكشف عن الأصول الأسطورية للتفاصيل المضافة إلى القصص[٦].

سادساً: وبناءً على ذلك فإن النهج الأمثل في دراسة نصوص الكتاب المقدس يتمثل في أننا نحن المسلمين نؤمن بما رواه القرآن ونحاول أن نستجلي الحق والباطل في النصوص الكتابية من خلال التقرير القرآني. ونستطيع بل ويتوجب علينا الاستفادة عن بصيرة وضمن هذه المسلمة الأولى من النتائج الكلية والجزئية للدراسات النقدية الحديثة عندما يتضح فيها تطبيق طرق منهجية سليمة وليس الهوى سواء كان هوى المتدينين أو الملحدين[٧]. وفي الواقع فإن مراجعة التراث الكتابي في ضوء التقرير القرآني المهيمن، وبالاستعانة بأساليب ونتائج النقد الحديث عمل في غاية الأهمية في إطار حوار الأديان أو صراع الحضارات ويتوجب على المسلمين القيام به لتأدية الدور الملقى على عاتقهم في إظهار دين الله (ليظهره على الدين كله) وهو عمل ضخم يحتاج إلى ماسسة وجهود جماعية متكاملة وخارجة عن الضغوط الرسمية المتأثرة بالسياسة وتقلباتها وخالصة لوجه الله.

سابعاً: وأخيراً فمن المسائل المهمة بالنسبة للتراث الكتابي المعتمد مسألة إعتماد أو قانونية الأسفار، فكل من العهد القديم والعهد الجديد يتكون من عدد كبير من الكتب تجمع مع الزمن ثم تقرر اعتماده كما تقرر عدم اعتماد كتب كثيرة أخرى تحمل نفس الطابع من التبجيل التقليدي والسؤال هو من اختار هذه الكتب بالذات ولماذا ومتى كان ذلك؟

فأما بالنسبة للعهد القديم فمن المتفق عليه أن اعتماد الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى كان بين القرن الرابع قبل الميلاد حينما عاد بها عزرا من المنفى البابلي وبين القرن الثاني قبل الميلاد حين انفصلت الطائفة السامرية والتي لا تعترف إلا بهذه الأسفار الخمسة ويرى ساندرز مؤلف كتاب التوراة والمعيار أن تأليف هذا الكتاب في المنفى جاء لإنقاذ اليهود الذين فقدوا دولتهم عن طريق تأكيد عهد من الله لهم بإعطائهم فلسطين. وبعد العودة من المنفى جمعت النبوءات التي كانت شائعة بين اليهود لأنبياء ما قبل المنفى والتي كان هدفها إنذار اليهود بمصيرهم المحتوم إذا استمروا في ضلالهم والتي لم يستمع لها في حينها واستعملت لتجديد الثقة بالعهد الرباني المزعوم وتكون من ذلك أسفار النبيين وهي الجزء الثاني من العهد القديم في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. وأما الأسفار الأخرى المسماة بالكتابات فقد بقيت عائمة ولم تنته قضية المعيارية إلا في نهاية القرن الأول بعد الميلاد وخاصة في مجمع الأحبار في يابنيه على الساحل الفلسطيني حيث قرروا أن النبوة قد انتهت بعد عزرا فاعتمدوا ما خيل لهم أنه كتب قبل عزرا ومن ذلك نشيد الإنشاد وهو كتاب غزلي اباحي

والجامعة وهو كتاب فلسفة عدمية ظناً بانهما من تاليف سليمان عليه السلام مما أثبت النقد الحديث خطأه كما اعتمدوا سفر استير رغم أنه لا ذكر فيه لاسم الله ولا مرة واحدة لأنه كان يقرأ في عيد المساخر وانفق أحدهم ثلاثمائة جره من زيت المصباح وهو يحاول التوفيق بين سفر حزقيال والتوراة أما سفر دانيال فاعتمدوه لأنهم ظنوه من تأليف دانيال في المنفى بينما يرى النقد الحديث أنه ألف في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. وسفر دانيال نموذج لمجموعة من كتب الرؤى والتي استبعدت والتي تكاثرت ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثاني بعد الميلاد ونسبت إلى غير مؤلفيها ممن لهم تبجيل خاص عند اليهود مثل اينوخ (أدريس؟) وموسى ويظن بان إغلاق الكتاب المقدس اليهودي جاء للحد من هذه الرؤى وخوفاً من دخول الكتابات النصرانية إلى اليهودية حيث كان النصارى الأوائل يعتبرون مذهباً يهودياً.

وأما بالنسبة للعهد الجديد فقد تحكمت المجامع الكنيسة في اختيار الكتب المعتمدة وأولها مجمع نيقيه سنة ٣٢٥م حيث اختار أربعة أناجيل من أصل مائتين وسبعين كانت متداولة «راجع البروفسور محمد عطاء الرحيم في كتابه عيسى يبشر بالإسلام والمزود بمراجعه» وأما إغلاق القانون فكان في مجمع قرطاجة سنة ٣٩٧ ميلادية، وقد اعتمدت رسائل بولص وبعض رسائل أخرى وافقت الفكر البولصي وقاموا بجمع ما استطاعوا جمعه من الاناجيل والرسائل الأخرى واعدموها وحكموا بالإعدام على من توجد عنده مستقبلاً نسخة منها.

هذا التقرير التاريخي المختصر يفيدنا في تقرير حقيقة هامة وهي أنه وبعد المؤامرة الكبرى التي قام بها كهنة المنفى ونفذها عزرا والكتبة والتي تركزت على التراث الموسوي استمر وجود تراث أنبياء ما قبل المنفى متداولاً في أيدي الناس مما اضطر الكتبة والفريسيين إلى التعامل معه وقد كان أنبياء ما قبل المنفى ركزوا بشكل خاص على نفاق الطبقة الحاكمة والأحبار والكهنة المتضامنين معها وأن هذا الواقع الاجتماعي سيقود إلى الكارثة فقام الكتبة والفريسيون بالتقاط هذا التراث ومحاولة احتوائه عن طريق إعطاء أمل جديد بتحقيق العهدالإلهي المزعوم وذلك لتكريس الواقع الجديد والذي عادوا فيه من جديد لممارساتهم السابقة من التسلط على العامة والتضامن مع السلطة سواء أكانت فارسية أم يونانية أم رومانية، ولهذا نشأت فرق مضادة للفكر الفريسي الذي يعتبر امتداداً لعمل عزرا والكتبة ومن هؤلاء من سموا المتعصبين (زيلوت) الذين استخدموا المقاومة المسلحة للمحتل ومنهم الذين تبنوا انتاج تراث رمزي يندد بالواقع ومن هذا التراث ما هو استرجاع لما حاول الكتبة اخفاءه وحيث كانوا يعملون في الظل فقد اضطروا لانتاج هذا التراث بشكل رمزي وغالباً بشكل رؤى واسناده إلى أسماء شهيرة ومبجلة وكان من هؤلاء فرقة الأسينيين والقمرانيين والذين اكتشفت آثارهم ومكتباتهم قرب البحر الميت في منتصف هذا القرن ثم جاء السيد المسيح وندد بالكتبة والفريسيين ونفاقهم ولكن لم يترك لنا التاريخ بياناً مفصلاً لكيفية تعامل السيد المسيح مع التراث اليهودي وهذه نقطة هامة يحتار فيها مفكرو النصارى اليوم بعد ثبات تزييف معظم هذا التراث(٨) .

وإذا كان هذا يدلنا على ضرورة دراسة الكتب الخفية والمنسوبة إلى غير أهلها والتراث القمراني فإنه كذلك يفسر الاضطراب في نسبة الأسفار المسماة نبوية في العهد القديم حيث نجد أسفاراً الحقت بغير مؤلفيها مثل النصف الثاني من سفر أشعيا والذي ينسبونه اليوم إلى أشعيا ثاني وثالث وسفر ملاخيا والذي لا ينسب لأحد وملاخيا تعني رسول الله ونبوءات هذه الأسفار ربما كانت لموسى أو لأنبياء آخرين ويكون نقلها لأي مكان آخر من باب تحريف الكلم عن مواضعه ويمكن أن يكون الأنبياء الآخرون أعادوا ذكرها كما ذكرنا أن الزبور كرر ما في التوراة من نبوءات ولهذا فلا بد من مراجعة التراث الكتابي كله للبحث عن النبوءات التي تعنينا فيما يخص الإسراء وإفساد بني إسرائيل ويقال مثل ذلك عن التراث النصراني وقد ظهرت كتب كانوا قد اخفوها طويلاً مثل انجيل برنابا.

وهكذا فرغم الجهود الشيطانية الضخمة التي مارسها الأحبار والكهنة والرهبان فلم تبؤ جهود الأنبياء بالفشل وبقي في هذا التراث ما يقيم الحجة على أهل الكتاب ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ وقد أسلم كثير منهم قديماً لما رأوا البينات ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

الفصل الرابع

ماذا نجد في التراث الكتابي عن مرتي الإفساد وعن البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وإسرائه

بينا في الفصول السابقة بأن القضاء (أو النبوءة) إلى بني إسرائيل بالإفساد في الأرض مرتين ارتبط بالبشارة بمحمد ﷺ وأنه الرحمة المذكورة في سورة الإسراء ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ ولذلك فيتوجب أن نبحث في التراث الكتابي عن ذكر مرتي الإفساد وعن البشارة بمحمد ﷺ وصفاته ومن هذه الصفات اسراؤه إلى بيت المقدس ولهذا الإسراء دلالة خاصة لأهل الكتاب كما سنبين في الفصل القادم وقد وردت البشارة بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل الأصليين وقد نص القرآن الكريم على ذلك في عدة مواضع وقد وصفت شريعته فيهما ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم عليهم﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ووصف أصحابه [الفتح:٢٩] وجاء كذلك أن أهل الكتاب يعرفون القرآن بوصفه ﴿وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون * الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين

خسروا أنفسهم فهو لا يؤمنون﴾ [الأنعام: ٢٠]. والبيت الحرام بوصفه [البقرة: ١٤٦] وتطبيقاً لذلك فقد كانوا يستفتحون على المشركين بمحمد ﷺ قبل مجيئه [البقرة: ٨٩] ثم آمن الذين لم يستكبروا منهم وصدقوا بمحمد ﷺ وكان أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق [المائدة: ٨٣].

كما بينا أن أهل الكتاب قد حرفوا كتبهم، وقد قام أحبار بني إسرائيل بهذا التحريف اسقاطاً لمفاهيمهم على كتاب الله وتكريساً لتسلطهم على العامة من شعبهم وبالمقابل فإنهم أوهموهم أنهم - بشرط طاعتهم لهم - فوق الناس بل وبرروا لهم أخلاقية استغلال غيرهم من الأمم وتسلطهم عليهم. وقد كان العمل الذي قام به أحبار المنفى البابلي ونفذه عزرا الكاتب في القرن الخامس قبل الميلاد من أكبر عمليات التزوير العقيدي في التاريخ، كان ذلك بعد حوالي القرن من بدء العودة من النفي البابلي وكانت التوراة الأصلية قد فقدت أو قاموا بإخفائها .. فقام عزرا ومساعدوه بكتابة سجل لتصورهم للخلق والأنبياء وأعمال موسى ووصاياه ضمنوه ما شاؤوا من التعاليم الموسوية وأطلقوا على هذا كله اسم التوراة مجازاً، من باب تسمية الشيء باسم جزئه.. وفي هذه الكتب الخمسة المنسوبة إلى موسى كرسوا القصص النبوي والتعاليم لخدمة أهدافهم وهي طاعة الأحبار وامتياز الشعب المختار، بالوعد والعهد الإجباري من الله واستغلال ـ أو على الأقل إن لم يكن الاستغلال فالانعزال ـ عن الأغيار وتشكل هذه المبادئ الثلاثة أسس الفكرة اليهودية إلى يومنا هذا، وقد قدس اليهود عزرا واعتبروه ابن الله ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ [التوبة: ٣٠]، وبالطبع فقد

عمل أحبار اليهود جهدهم لإخفاء البشائر بمحمد ﷺ عن عامة شعبهم لأنها البشارة بالنبي الذي من غيرهم (الأمي) والذي هو للأمم جميعاً وليس لهم فقط وقد كانوا أقاموا دينهم على أنهم شعب الله من دون الناس وعلى ذلك أقاموا العهد الإجباري بينهم وبين الله في زعمهم والعهد يتضمن الوعد بالأرض وبتسلطهم على الشعب!.

وقد استمر التحريف من بعد عزرا لاستدراك ما فاته وسنبين بعد قليل مثالاً على ذلك، حتى إذا جاء السيد المسيح وأثبت بمعجزاته حقيقة نبوته وبيّن للكتبه والفريسيين نفاقهم وأعاد البشارة بالنبي الخاتم وهذا معنى انجيل أي بشارة، سارع الأحبار لخنق الحقيقة الخطيرة في مهدها فخططوا لقتله ولا يزال اليهود إلى اليوم يفتخرون بأنهم قتلوه.. ﴿ وما قتلوه ﴾ [النساء: ١٥٧]، حتى إذا ما رفعه الله إليه بادر أحدهم وهو شاول الفريسي الطرسوسي والذي سمي فيما بعد «بالقديس بولص» إلى عملية تزوير عقيدي لا تقل ضخامة عن تلك التي قام بها عزرا.

كان بولص مثقفاً بالثقافة اليونانية فضلاً عن الإسرائيلية بحكم نشأته في أنطاكية العاصمة السلوقية السابقة، فقام باسقاط أفكار مقتبسه من الفلسفة الاشراقية اليونانية مثل الكلمة (اللوغوس) وافكار ميثولوجية مقتبسة من أديان الغموض (أو الأسرار) مثل صلب الإله والفداء بالدم الإلهي والقربان بالخبز الذي يصبح لحم الإله والخمر الذي يصبح دمه على شخص السيد المسيح، وبذلك جعل من النصرانية ديناً جديداً ما كان المسيح نفسه ليعرفه كما يقول البروفسور شارل جنيبر في تاريخ المسيحية، وقام بولص بالطبع بتحريف بشائر

المسيح بمحمد عليهما السلام فأوجد للنصارى عهداً جديداً غير عهد اليهود وجعله قائماً على الصلب والفداء والقربان، ولذلك فلا مكان فيه لنبي بعد عيسى كونه في الدين البولصي ليس مجرد نبي بل ابن الله الحي الذي افتدى به الناس جميعاً وجعل هذا الدين ليس لليهود فقط بل للناس جميعاً ولذلك فإنه أوّل كل بشارات المسيح بمحمد عليهما السلام بأنها بشارات المسيح بنفسه على انه للناس جميعاً وأنه النبي الأخير.

رغم هذا التحريف فإن ظلالاً باهتة للحقائق التي كانت عليها الكتب الأصلية يمكن أن تظهر من خلف النصوص بأسلوب الفلتات (بالمعنى الفرويدي) التي لم ينتبه إليها المحرفون، وهكذا فقد شاءت ارادة الله عز وجل أن تبقى بعض الإشارات في الكتب التي بين أيدينا إلى رسالة محمد ﷺ وقد كانت كافية لإسلام الكثيرين من علماء أهل الكتاب قديماً وحديثاً، ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

وقد أشرنا في الفصل السابق أن علينا أن نبحث عن ذكر مرتي الإفساد والبشارة بالرسول ﷺ في التراث الكتابي كله وسنتطرق هنا إلى أهم هذه الإشارات ولنأخذ بالتفصيل.

أولاً : الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى

رغم أن الأسفار المنسوبة إلى موسى خمسة إلا أنها في الواقع كتابان: الأول يشمل الأسفار الأربعة الأولى حيث جاء الفصل بينها صناعياً لأغراض تعليمية والثاني يشمل الكتاب الخامس فقط وهو سفر التثنية، ولكل من الكتابين قصته التاريخية المختلفة كما بينت الطرق

النقدية الحديثة. وقد ألف سفر التثنية لأهداف خاصة، يقول شارح السفر في طبعة دار المشرق الكاثوليكية: «هذا السفر يحتوي على إعلان ثان ـ ومنه كلمة تثنية ـ للشريعة في سهول مؤاب، فهو إذ يستعيد التشريع المعطى أولاً في سيناء وقادش يظهر الآن كوصية موسى الروحية التي تركها للشعب على أعتاب أرض الميعاد، فلو درست النصوص دراسة عميقة لظهر من الخطب التي وجهها موسى من قبل الله إلى الشعب الإسرائيلي الفتي أنها بالواقع إطار أدبي، فالشعب المشار إليه هنا ليس عشية فتح بل شعب مزارعين صغار قد استقروا منذ أمد بعيد في فلسطين وقد تأثر بالمدنية الحضرية.. وقد رأى مؤلف سفر التثنية كي يحفظ إيمان معاصريه ويحذرهم من تأثير الكنعانيين المشؤوم أن يعتمد على تقاليد قديمة وعلى سلطة موسى ليعطي رسالته الملهمة فكان لابد لمشاكل جديدة من تنظيمات جديدة، لقد وضع الكلام على لسان موسى لأنه امتداد لشريعته ولكنه مطبق على الأيام الجديدة.. وذلك حسب عقلية العصر».

طبعاً الكلام واضح الدلالة ولكن يهمنا هنا الإشارة إلى أن هذا السفر هو تلخيص وإعادة لتقاليد قديمة. والآن فإننا نجد في هذا السفر (١٨ :١٨-١٩) «اقيم لهم نبياً من بين اخوتهم مثلك والقى كلامي في فمه فيخاطبهم بجميع ما آمره به وأي إنسان لم يطع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه».. ومن اخوتهم الإشارة إلى بني إسماعيل وقد أثبت العلامة رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق أن هذه البشارة بمحمد ﷺ والقى كلامي في فمه إشارة إلى القرآن وإلى أن النبي لا يكتب ولا يقرأ [الأعراف: ١٥٧] هذه الإشارة إلى النبي

من اخوتهم نجدها في الأسفار الأربعة الأولى عند السامريين ضمن الوصايا العشر (الخروج: ٢٠: ١-١٢) كما نجدها في نفس الموضع في اللفائف التي استخرجت من قمران ولكننا لا نجدها في سفر الخروج في التوراة المتداولة عند اليهود ـ غير السمرة ـ والنصارى اليوم وهذا يعني أنها حذفت ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ ق.م (راجع الفصل السابق) أى بعد عزرا وهذا دليل على أن الكتبة تابعوا مهمة التحريف باخلاص. ويقول البروفسور دكسنجر (طرق دراسة لفائف البحر الميت وخربة قمران ـ أكاديمية نيويورك للعلوم) أن السامريين يسمون (النبي مثل موسى): التاهب وتعني بالآرامية العائد وسنعود لدلالة ذلك فيما بعد.

أما التنبؤ بإفساد بني إسرائيل بعد دخول الأرض فقد ورد مراراً هذا السفر (٤: ٢٥-٣١، ١١: ١٦ - ١٢، ١١: ٢٦-٢٩، ٢٨: ١٥-٦٨، ٢٩: ١٩-٢٨) وقد عنونت الطبعة الجديدة العالمية للكتاب المقدس الفقرة (٣١: ١٤ -٢٩) النبوءة بإفساد بني إسرائيل ثم تجيء الجملة (٣٢: ٢١) هكذا (هم أغاروني بمن ليس إلهاً وأغضبوني بأباطيلهم فأنا أغيرهم بمن ليسوا شعباً بشعب جاهل أغضبهم) والشعب الجاهل هم العرب لأنهم كانوا قبل الإسلام في غاية الجهل والضلال كما يقول العلامة رحمة الله الهندي.

ثم تجيء بشارة موسى أو بركته «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران جاء ومعه الوف الاطهار من الجنوب».. وسيناء ترمز إلى موسى وساعير (القدس) إلى عيسى

وفاران (مكة) إلى محمد ﷺ .. راجع آية الأعراف ١٥٧ .

وعليه نجد في هذا السفر ذكر إفساد بني إسرائيل ووعد المرة الأولى والبشارة بالرحمة المهداة محمد على لسان موسى وعيسى، ولكننا لا نجد ذكر المرة الثانية، ويختلط في هذا السفر البشارة الحقيقية بواقع اليهود في مملكتيهم أيام كتب هذا السفر ثم واقعهم في النفي وبعد عودتهم أيام أعيدت « دبلجته » وفي الواقع فإن سقوط القدس كان له أثر كبير في تحوير فهم النبوءات الأسكاتولوجية (الأخروية) عند بني إسرائيل وبالتالي في طريقة إعادة كتابتها ولا نلتفت هنا إلى الأسفار الأربعة الأولى المنسوبة إلى موسى لأن التحريف قد طالها أكثر كما بينا ذلك.

ويقول السموأل بن يحيى المغربي المتوفى سنة ٥٧٠هـ ـ وهو حبر يهودي اعتنق الإسلام ـ في كتابه إفحام اليهود : (لا يعتقد أحد من علماء وأحبار اليهود إن هذه التوراة التي بأيديهم هي المنزلة على موسى البتة لأن موسى صان التوراة عن بني إسرائيل وسلمها إلى عشيرته أولاد لاوي ودليل ذلك قول التوراة : وكتب موسى هذه التوراة وسلمها إلى الأئمة بني لاوي، ولم يبذل موسى من التوراة لبني إسرائيل إلا نصف سورة يقال لها ها أزينو فإن هذه السورة من التوراة هي التي علمها موسى بني إسرائيل، وذلك قوله وكتب موسى هذه السورة وعلمها بني إسرائيل وأيضاً فإن الله قال لموسى عن هذه السورة (وتكون لي هذه السورة شاهداً على بني إسرائيل) وأيضاً (لأن هذه السورة لا تنسى من أفواه أولادهم) يعني أن هذه السورة مشتملة على ذم طباعهم وأنهم سيخالفون شرائع التوراة وأن السخط يأتيهم بعد

ذلك وتخرب ديارهم ويشتتون في البلاد فهذه السورة تكون متداولة في أفواههم كالشاهد عليهم الموافق لهم على صحة ما قيل لهم فلما قال تعالى عنها لا تنسى من أفواه أولادهم دل على أن الله تعالى علم أن غيرها من السور تنسى، والأئمة الهارونية الذين يعرفون (باقي) التوراة قتلهم نبوخذ نصر على دم واحد يوم فتح بيت المقدس، والتوراة التي بين أيديهم اليوم لفقها عزرا) وعليه فإن مما لا ريب فيه أن بني إسرائيل يعلمون بالقضاء وقد بثوه مفرقاً في كتبهم سواء في الأسفار الخمسة أو باقي العهد القديم أو في الكتب الأخرى مثل الابوكريفا والبسيدابيغرافا أو ما سموه بالتراث الشفهي (التلمود) والمدراش بحيث لا يعلمه إلا المتعمقون والذين أصبحوا بحكم تعمقهم مؤتمنين على المخططات السرية للعصابات المسيطرة على « الشعب » .

ثانياً : سفر المزامير المنسوب إلى داود :

لا نستطيع أن نلم في هذا الاستعراض السريع بجميع الاشارات التي وردت في المزامير عن الموضوع الذي يعنينا هنا وهو إفساد بني إسرائيل ووراثة الأرض والبشارة بمحمد ﷺ ذلك أن هذه الإشارات تتكرر كثيراً، وقد كانت موضوعاً متكرراً لتغني داود وحمده للرب على ارساله النبي الخاتم لكثرة ما واجه داود من عصيان بني إسرائيل (المائدة ٧٨) وقبل أن نستعرض أهم هذه الإشارات نبين هنا أن إلغازا أو غموضاً في النص ينتج بشكل مقصود أو غير مقصود عن رواية وترجمة النصوص ونمثل على ذلك بالمزمور الشهير ١٠٩ وهو بالترجمة العبرية الحرفية (قال يهوه لادوناي اجلس عن يميني) فالبروتستانت ترجموها (قال الرب لربي) والكاثوليك ترجموها (.قال الرب لسيدي)

والمقصود طبعاً أن الله قال لرجل مكرم عنده هو سيد لداود وقد سأل المسيح الفريسيين على رواية متى ولوقا ومرقص كيف يقولون أن المسيح ابن داود وداود يقول قال الرب لربي فإذا دعاه داود ربا فكيف يكون ابناً لداود، وقد استخدم مؤلهو المسيح هذه المقولة لدعم مقولتهم أما نحن فضمن التوحيد والتنزيه لله نقول إن ادوناي هنا تعني سيدي وأن هذه الإشارة تعود إلى محمد ﷺ وأن هذا ما أشار به المسيح إلى الفريسيين الذين تابعوا عزرا في نفي نبوة النبي الخاتم الإسماعيلي، وعليه فكلما وردت كلمة الرب في المزامير فقد تعني الله أو تعني السيد وغالباً ما يقصد به محمد ﷺ ويفهم المقصود منها حسب السياق.

وهذه مقتطفات من المزامير:

المزمور ٣٦، أما الذين يرجون الرب فإنهم يرثون الأرض. يعرف الرب أيام الصالحين وميراثهم يبقى إلى الأبد. المنافق يكيد للصديق والسيد يضحك منه لأن يومه آت. في قلبه شريعة الهه فلا تزل خطواته. أما العصاة فيدمرون جميعاً، قارن بقوله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء:١٠٥] والسيد إشارة إلى محمد ﷺ.

المزمور ٤٤، في وصف محمد ﷺ كما بينه الإمام رحمة الله الهندي وآخره: سأذكر اسمك في كل جيل فجيل لذلك تعترف لك الشعوب إلى الدهر والأبد، قارن بسورة الكوثر.

المزمور ٧١: في وصف محمد ﷺ.

المزمـــور ٩٤ : أربعين سنة مللت من ذلك الجـيل وقلت إنما هم شعب قلوبهم في ضلال ولم يعرفوا سبيلي حتى أقسمت في غضبي أن لن يدخلوا في راحتي، قارن بقوله تعالى ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

المزمور ١٠١ : الشعب الذي سيخلق يسبح الرب، حتى يحدث في صهيون باسم الرب وبتسبيحه في أورشليم، عند اجتماع الشعوب والممالك جميعاً لكي يعبدوا الرب، هذه بشارة بنبي الأمم والصحابة الذين سيعيدون للمسجد قدسيته.

المزمور ١٠٥ : فاضطرم غضب الرب على شعبه وسلمهم إلى أيدي الأمم، خلصنا أيها الرب واجمعنا من الأمم لنعترف لأسمك القدوس ونشيد بجهدك هذه نبوءة عن وعد أولاهما، ثم عن المجيء بهم لفيفاً.

المزمور ١٠٦ : ويباركهم فيكثرون جداً وبهائمهم أيضاً يكثرها ثم يقلون ويتطامنون من شدة المساءة والحسرة، هذه تكملة النبوءة وهي من رد الكرة إليهم ثم اساءة وجوههم من جديد لخلفهم العهد.

المزمور١٠٩ : قال الرب لسيدي اجلس عن يميني حتى اجعل أعداءك موطئاً لقدميك، اقسم الرب ولن يندم أن أنت كاهن إلى الأبد على رتبه ملكيصادق يدين في الأمم. بشارة بمحمد ﷺ.

المزمور١١٧ : الاعتصام بالرب خير من الاتكال على البشر، الاعتصام بالرب خير من الاتكال على العظماء. الحجر الذي رذله البناؤون صار رأساً للزاوية، مبارك الآتي باسم الرب باركناكم من بيت

الرب. قارن أولاً بقول تعالى ﴿ الا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾ أما الحجر الذي صار رأساً للزاوية فهو محمد ﷺ لأن اليهود نظروا للإسماعيليين على أنهم أبناء هاجر الجارية ليستحقروهم والآتي من بيت الرب مبارك هو محمد ﷺ في إسرائه من مكة إلى القدس.

وراجع كذلك المزامير : ٢، ٧، ٣٩، ٨٨، ٩٥، ١١٠، ١٣١، ١٤٩ وقد اعتمدنا هنا التعداد الكاثولكي.

ثالثاً: سفر أشعيا

عاش أشعيا في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد في بيت المقدس ولذلك فإذا أمكن نسبة الفصول ١–٣٩ من سفره إليه فإن الفصول ٤٠–٥٥ تنسب إلى من اسموه أشعيا الثاني حيث تبين منها أنها كتبت قبل العودة مباشرة من السبي البابلي أما الفصول ٥٦–٦٥ فتنسب إلى أشعيا الثالث حيث أنها كتبت بعد العودة وبناء الهيكل، ويعزو شارح السفر في الطبعة الكاثوليكية هذه الظاهرة إلى أن نفوذ أشعيا قد بلغ إلى حد أنه طمس أسماء هؤلاء الأنبياء فضمت نبوءاتهم إلى سفر أشعيا ويضيف بان هذا ما يظهر هذا السفر في أسلوب أدبي لا تماسك فيه، على أننا سنهتم هنا بالفصول المنسوبة إلى أشعيا الثاني وسنجد فيها تماسكاً معنوياً إذا فهمناها في ضوء القضاء إلى بني إسرائيل الوارد في سورة الإسراء.

ويذكر المؤلف بانه يستعيد بنوءة سابقة (٤٤ :٨ و٤٨ :٣) ويمكننا أن نقسم الكتاب إلى أربعة مساقات يتكرر فيها نفس السياق بأسلوب مختلف في كل منها، وهذا السياق يبتدأ بدعوة إسرائيل للنهوض والاستيقاظ وينبهها إلى أن سقوط القدس كان انذاراً لهم

بقرب الوعد الأول ويطمئنها بأن هذا ليس هو وعد المرة الأولى وإنما هو انذار له وما يزال أمامهم متسع من الإمكانية للتوبة والاحسان ثم يتنبأ لهم بانهم سيعودون إلى عملهم السيء ولذلك سيجيء الوعد على يد «عبدالله» وهنا تورد صفات الرسول ﷺ وأنه رسول الأمم ويتكرر السياق على هذا النسق أربع مرات هي: الأولى (٤٠-٤٤:٥) الثانية (٤٤:٦-٤٩:٧) الثالثة (٤٩:٨-٥١-١٦) الرابعة (٥١:١٧-٥٥).

وهذه بعض المقتطفات من سفر أشعيا الثاني:

«اسمعوا هذا يا آل يعقوب المدعوين باسم إسرائيل الخارجين من صلب يهوذا المقسمين باسم الرب الذاكرين إله إسرائيل بغير عدل ولا حق وقد دعوا أنفسهم من مدينة القدس واعتمدوا على إله إسرائيل إني أخبرت بهذه الأوليات منذ وقت طويل، بغتة صنعتها فاتت لعلمي بأنك قاس: أخبرتك منذ ذلك الوقت ومن قبل أن يحدث اسمعتك» (٤٨:١-٤).. انذار بقرب الوعد.

من أجل اسمي ابطيء غضبي ولأجل عظمتي امسك عنك حتى لا أقطعك.. (٤٨,٩) امهال لأجل أن يتوبوا... والمقصود في من أجل اسمي أنهم يسمون إسرائيل وإيل تعني الله.

لا سلام للشرير يقول الرب (٤٨-٢٢) انذار بأن الوعد آت لا محالة.

«اسمعوا لي يا قساة القلوب البعيدين عن الاستقامة إني قربت بري، إنه ليس بعيداً» (٤٦، ١٣) انذار بقرب الوعد.

«سوف اطرد رؤساء معبدكم واسلم يعقوب إلى التدمير» (٤٣، ٢٨).

«لا تذكروا الماضي ولا تتأملوا في القديم، ها انذا أصنع أمراً جديداً فينشأ الآن. اجعل في الصحراء طريقاً وفي القفر جداول .. لأسقي شعبي مختاري. هذا الشعب جبلته لنفسي فهو يسبح بحمدي، وأنت لم تدعني يا يعقوب ولم تتعب لأجلي يا إسرائيل» (٤٣,١٨–٢٢) وصف لأمة الإسلام قارن بقوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

«سيقول هذا أنا انتمي إلى الله وهذا سيسمّى يعقوب وهذا سيكتب بيده لله ويسمي إسرائيل» (٤٤,٥)، الاسم بما فيه من انتساب إلى الله سينزع منهم ويعطي لغيرهم (وسنفسر ذلك في الفصل القادم إن شاء الله عند بيان العلاقة بين الإسراء وإسرائيل).

«هو ذا عبدي الذي أؤيده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم. لا يصيح ولا يجلب ولا يسمع صوته في الشارع .. لا يكل ولا ينكسر حتى يقيم الحق في الأرض» (٤٢ : ١ –٤) في صفة رسول ﷺ.

«سبحوا للرب تسبيحة جديدة إلى أقاصي الأرض وفي البحر وفي الجزر. لترفع الصحراء وقراها أصواتها ولتهنأ مواطن قيدار وليغن شعب سلع... ويسبح الله، السيد سيسير كرجل جبار، كرجل حروب يثير غيرته ويهزم أعداءه» (٤٢ : ١٠–١١) قيدار من أبناء إسماعيل كناية عن العرب وسلع جبل في المدينة المنورة.

«ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد واصرخي من الفرح.. وسعي موضع خبائك... لأنك ستمتدين إلى اليمين وإلى الشمال ويرث نسلك الأمم» (٥٤ :١-٣) و«لفترة قصيرة هجرتك وبمراحم عظيمة اضمك» (٥٤ :٧).. والمقصود بالعاقر مكة التي لم تنجب أنبياء من بعد إسماعيل (راجع إظهار الحق للعلامة الهندي).

– قال الرب الذي جبلني عبداً له لأرد يعقوب إليه فيجتمع له إسرائيل... قال: قليل أن تكون لي عبداً لتقيم أسباط يعقوب. إني جعلتك نوراً للأمم لتكون رحمتي إلى أقاصي الأرض» (٤٩ :٦) صفته ﷺ رحمة لإسرائيل ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ ورحمة للأمم جميعاً.

رابعاً: سفر ملاخي

ملاخي تعني رسولي ويسمى أيضاً سفر ملاخيا وتعني رسول الله ويرى باحثو العهد القديم انها ليست اسم علم على مؤلف السفر وأن السفر مجهول الكاتب ولكنه كتب في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد أي نفس الفترة التي كتب فيها عزرا توراته ولكنه ليس من عمل عزرا وقد ذكرنا في الفصل السابق أن النبوءات المأثورة عن الأنبياء بقيت متداولة في الأوساط اليهودية دون جمع قانوني حتى وقت متاخر عن هذا الزمن وأن الجمع النهائي لها كان في أواخر القرن الأول الميلادي وعليه فربما كانت هذه نبوءة مروية عن موسى أي من التوراة الأصلية ولم يدمجها عزرا في توراته جهلاً أو نسياناً أو تناسياً ونادي بها حبر آخر وادمجها ضمن مواعظه ـ شانها شان سفر أشعيا الثاني ـ وسماها باسمها ملاخيا اي رسول الله.

وسفر ملاخي مكون من أربعة فصول وفيه تأنيب لبني إسرائيل ـ بعد العودة من السبي ـ على عدم الإخلاص لله واحتقار مائدته وتهديد باللعنة لأنهم لم يجعلوه في قلوبهم وتنديد بهم لظنهم بأنهم مهما عملوا من شر فهم صالحون في عيني الرب بينما الأمم الأخرى تمجد الرب واسمه عظيم فيهم، ثم تجيء نبوءة مجيء السيد إلى هيكله حيث يصنع السلام، يقول السفر (١:٣): ها انذا أرسل رسولي فيمهد الطريق أمامي ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه ورسول العهد الذي تسرون به قال رب الجنود»، ومجيء السيد بغتة إلى هيكله إن هو الإسراء بمحمد ﷺ ولم يعرف المسجد الأقصى السلام منذ بناه داود وسليمان إلا بعد أن دخله المسلمون أي منذ انتهاء الإفساد الأول لبني إسرائيل، ورسول العهد إشارة إلى عهد الله إلى موسى والذي ذكرناه في سفر التثنية(١٨–١٨) وبهذا المجيء يمحص المحسن من المسيء (فإنه مثل نار الممحص) «أنتم يا بني يعقوب... من أيام أبائكم زغتم عن رسومي ولم تحفظوها توبوا إلي أتب إليكم» قارن بقوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا﴾ ثم ينذر مجدداً «هو ذا يأتي اليوم المضطرم، اذكروا شريعة موسى عبدي. ها انذا ارسل إليكم إيليا النبي قبل أن يجيء يوم الرب العظيم الرهيب».

وإيليا هو النبي الياس ويزعم اليهود أنه رفع إلى السماء ويزغمون لعامتهم بانه سيعود[٩] وذلك تجنباً لذكر الاسم الحقيقي للنبي الذي سيأتي حقاً بين يدي الساعة وهو أحمد، يقول يوحنا في انجيله على لسان السيد المسيح «خير لكم أن انطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم

البريكليتوس... وأما متى جاء فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به» (١٦:٧-١٢) والبريكليتوس صيغة تفضيل من بيريكلس أي حميد فهي تعني أحمد وقد اعتاد اليهود أن يبدلوا الكلمات التي لا يرغبون بذكرها بكلمات تساويها في حساب الجمل، وكلمة أحمد وإيلياء والياهو يمكن استبدالها ببعضها لأن كلاً منها تساوي (٥٣) في الحساب المذكور، وكذلك فقصة عروج إيليا إلى السماء تناسب النبي الذي بشروا بإسرائه ومعراجه وهو محمد ﷺ.

وهذا يفسر أيضاً السؤال الذي وجهه اليهود إلى يحيى عليه السلام: «لم تعمد ولست المسيح ولا إيليا ولا النبي» انجيل يوحنا (١,٢٢)، ولعل سؤالهم: لم تعمد ولست المسيح ولا إيليا النبي، وهذا يدل على أن اليهود كانوا ينتظرون نبيين: المسيح ومحمد عليهما السلام، وقد جاءت بشارات عن الإسراء في الأناجيل «وحينئذ يشاهدون ابن الإنسان آتياً على السحاب بقوة وجلال عظيمين، إنكم لا تعلمون متى يجيء سيد البيت أفي في المساء أم في نصف الليل أم عند صياح الديك أم في الصباح» لوقا (١٣، ٢٧ - ٣٧).

وقد أدى تحريف فهم هذه البشارات وأمثالها من قبل المدرسة البولصية وحملها على المسيح نفسه إلى أن كانت الأجيال النصرانية الأولى تنتظر القدوم الثاني للمسيح وحيث لم يحصل هذا القدوم فقد تكونت لديهم فكرة القدوم الثاني المنتظر والذي ستعقبه الألف سنة السعيدة وركب اليهود حديثاً هذا المعنى وأوهموهم أن المسيح لا يعود إلا بعد قيام دولة إسرائيل فتبنوا قيام إسرائيل وهذا ما يسمى بالانجيلية

الصهيونية ولها اليوم تأثير عظيم في السياسة الأمريكية خصوصاً. مع أن هذه النبوءات نفسها فيها أن النبي الآتي هو من إخوتهم أي من بني إسماعيل (أعمال الرسل في العهد الجديد ٣، ٢٢).

وهكذا ناسب أن يجيء ذكر إفساد بني إسرائيل في الأرض بعد ذكر الإسراء ذلك أن بني إسرائيل بشروا بمحمد ﷺ وبالإسراء كعلامة من علاماته. نبي الإسراء هو خاتم الأنبياء الذي جمع له المسجدان والذي ترث أمته المسجدين وكان أنبياء بني إسرائيل قد أمروا قومهم بالدخول في أمة محمد ﷺ فلو فعلوا ـ وما كانوا ليفعلوا بما جبلوا عليه من صلف وعناد ـ لانتهى فسادهم في الأرض وإذ لم يفعلوا فقد جاء وعد عقاب المرة الأولى وكان الإسراء إشارته.

واصطف الأنبياء وفيهم أنبياء بني إسرائيل وقدموا محمداً ليؤمهم وكأنما هؤلاء الأنبياء وقد يئسوا من بني إسرائيل يحيلون إلى النبي الخاتم وراثة عهد إبراهيم وإنهاء فساد بني إسرائيل وهذا ما قام به عليه السلام ورد الاعتبار إلى أنبياء بني إسرائيل الذين أهانهم قومهم فقد آذوا موسى فبراه الله في القرآن مما قالوا واتهموا هارون بصناعة العجل وداود بالزنا وسليمان بالكفر والسحر وعيسى بأنه ابن زنا بل حتى أباهم يعقوب اتهموه بالتحايل على أخيه لينال العهد من أبيه وجاء الإسلام بكرامة الأنبياء على الله وعصمتهم عما نسبوه إليهم.

﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ الرعد ٤٣.

الفصل الخامس

الوحدة الموضوعية في افتتاحية سورة الإسراء

سميت هذه السورة بسورة سبحان لأنها افتتحت بهذه الكلمة واختصت بذلك، كما سميت سورة الإسراء لأنها قد ذكر في أولها الإسراء بالنبي ﷺ واختصت بذكره وإن كانت هناك إشارة أخرى إلى الإسراء وردت في قوله تعالى من سورة السجدة ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ قال القرطبي وابن كثير عن قتادة وابن عباس: فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى يعني ليلة الإسراء، مما يدل على الصلة الوثيقة بين الإسراء ولقاء موسى عليه السلام نبي بني إسرائيل الأكبر. ولكنها كانت تسمى زمن الصحابة سورة بني إسرائيل روى الترمذي عن عائشة (كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل) كما روي عن ابن عباس أن التوراة كلها في خمس عشرة وفي رواية في ثماني عشرة آية من سورة الإسراء من قوله تعالى ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر..﴾ الآية ٢٢ إلى قوله تعالى ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر..﴾ الآية ٣٩.

فما هو السر في جمع افتتاحية السورة بين ذكر الإسراء وذكر بني إسرائيل ومرتي إفسادهم؟ اتفق المفسرون على أن العلاقة بينها هي بيت المقدس ولعل الطف ما قيل في ذلك ما قاله الشيخ ابن عاشور في

التحرير والتنوير: (افتتحت السورة بمعجزة الإسراء .توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه السلام على عادة القرآن في ذكر المثل والنظائر الدينية ورمزاً إلهياً إلى أن الله أعطى محمداً ﷺ من الفضائل أفضل مما أعطي من قبله وأنه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائته .فمن أجل ذلك أحله بالمكان المقدس الذي تداوله الرسل من قبل والذي هو مهبط الشريعة الموسوية والذي هو نظير المسجد الحرام في تأسيسه في عهد إبراهيم فأحل الله به محمداً بعد أن هجر وخرب إيماء إلى أن أمته تجدد مجده وأن الله مكنه من حرمي النبوءة والشريعة، وذكر مبدأ الإسراء ونهايته فيه إيماء إلى أن الله تعالى يجعل هذا الإسراء رمزاً إلى أن الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفية من عهد إبراهيم عليه السلام الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرها بيت المقدس ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكة أيضاً. كما عاد الإسراء إلى مكة لأن كل سرى يتبعه تأويب وبذلك حصل رد العجز على الصدر) .

وهذا كلام جميل رغم أن بيت المقدس لم يكن مهبط الرسالة الموسوية على أن صلة بني إسرائيل ببيت المقدس ترجع إلى إسرائيل نفسه وهو يعقوب عليه السلام بل إن كلمة إسرائيل نفسها ترجع إلى الإسراء وفي هذا تتسق الوحدة الموضوعية في افتتاحية السورة ولنأخذ بالتفصيل .

أولاً : معنى إسرائيل عند اليهود

جاء تفسير كلمة إسرائيل في الكتب التي لفقها عزرا ونسبها إلى موسى في الأصحاح ٣٢ من سفر التكوين من الكتاب المقدس (؟!)

فبعد ان يذكر ان يعقوب غدر بأخيه وسرق منه بركته هرب منه ثم عاد بعد سنين فأرسل طلائع ليكفوه شر أخيه (وبقي يعقوب وحده فصارعه إنسان إلى مطلع الفجر ورأى ـ الإنسان ـ أنه لا يقدر على يعقوب فضرب حق وركه فانخلع حق ورك يعقوب في مصارعته له وقال الإنسان ليعقوب اطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال يعقوب لا اطلقك حتى تباركني فقال له ما اسمك قال يعقوب قال لا يكون اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك تصارعت مع الله ومع الناس وانتصرت وباركه هناك. وسمي يعقوب الموضع فنوئيل قائلاً إني رأيت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي) و(فنو) تعني وجه و(إيل) تعني الله. قال في التحرير والتنوير وهذا يدل على أن اسرا راجع إلى معنى الأسر أى أن إسرائيل آسر الله تعالى عز وجل علواً كبيرا وهذه القصة واضحة في أن بني إسرائيل أو بعضهم على الأقل حين كفروا تخيلوا الله عفريتا من العفاريت ومثل افلام دراكولا فإن هذا العفريت لا يستطيع البقاء حين يطلع النهار لئلا يحترق ولذلك اضطر إلى مباركة يعقوب حتى يطلقه.

وربما تكون هذه الرواية مقتبسة من أساطير الشعوب الأخرى كعادة بني إسرائيل في السرقة أو تكون من ابداعاتهم النذلة ولكنها على كل حال من أوقح ما تجرأ به شعب على ربه أن جعلوا أباهم يصرعه ويأخذ منه البركة غصباً، والعجيب أن بعض المفسرين المسلمين في تفسير كلمة إسرائيل نقلوا هذه القصة كما هي وحاولوا أن يخففوا من وطأتها بأن جعلوا معنى رأيت الله : أي رأيت ملاك الرب، على طريقة ابن ميمون... (راجع الفصل الثالث من هذا

الكتاب) وهذا يدل على كل حال على أن عزرا والكتبة نجحوا في مغالطة وتشويه مفهوم الإسم بالتمام لما ترتب على ذلك من نتائج سنفصلها لاحقاً.

ثانياً: معنى إسرائيل عند المفسرين المسلمين

ذكر المفسرون المسلمون هذه الرواية الإسرائيلية كما ذكرنا وأخرجها عبد بن حميد عن أبي مجلز وعقب عليها أبو مجلز قائلاً ألا ترى أن إسرائيل من أسماء الملائكة! وأخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس أن إسرائيل كقولك عبدالله (أي مضاف ومضاف إليه) وقال القرطبي أن ابن عباس قال اسرا بالعبرانية هو العبد وايل هو الله (ولم أجد في المعاجم العبرانية الحديثة هذا المعنى ـ عبد ـ لأي أصل ثلاثي يحتوي السين والراء بهذا الترتيب) وقيل إسرائيل هو صفوة الله وقيل اسرا من الشد فكأن إسرائيل الذي شدّه الله وأتقن خلقه (وهذا يرجع إلى معنى أسر في الرواية اليهودية ولكن هنالك أضيف إلى المفعول وهنا أضيف إلى الفاعل).

ويقول الحافظ السهيلي في كتابه (التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام) : إسرائيل هو يعقوب بن اسحق وسمي كذلك لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى فسمى إسرائيل أي سرى إلى الله تعالى أو نحو هذا فيكون بعض هذا الاسم عبرانياً (ايل) وبعضه سريانياً (أسرا) موافقاً للعربي وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي أو يقاربه في اللفظ. ويقول عند الكلام على الإسراء: بيت المقدس ابتدأ داود بناءه فأكمله ابنه سليمان عليهما السلام وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام بأربعين سنة

وهذا يدل على أنه قد كان بني أيضاً في زمن إسحق ويعقوب عليهما السلام، وقد ذكر الطبري والعتبي أن يعقوب عليه السلام حين أسرى إلى الشام ليلة رأى في منامه سلماً تعرج فيه الملائكة إلى السماء وتنزل فيه في موضع بيت المقدس فامر أن يتخذه منسكاً أو قال مسجداً فهذا يقوي أنه قد كان ثم مسجداً آنذاك مع ما تقدم من الحديث الصحيح ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام والله أعلم.

ثالثاً : قصة إسراء يعقوب في الكتاب المقدس

وقد وردت القصة التي رواها السهيلي في الاصحاح ٢٨ من سفر التكوين ونرويها هنا كما حرفها اليهود على طريقتهم وهم يذكرونها في معرض رحلة يعقوب هربا من عيسو بعد أن سرق بركته: (وخرج يعقوب من بئر السبع ومضى إلى حاران فصادف موضعاً بات فيه إذ غابت الشمس فأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام في ذلك المكان فرأى حلماً كان سلماً منصوبة على الأرض ورأسها إلى السماء وملائكة الله تصعد وتنزل إليها، وإذا الرب واقف على السلم فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق، الأرض التي نائم أنت عليها أعطيها لك ولنسلك ... فاستيقظ يعقوب من نومه وقال إن الرب لفي هذا الموضع وأنا لم أعلم، ما هذا إلا بيت الله هذا باب السماء وسمى ذلك الموضع بيت أيل ولكن اسم المدينة أولاً كان لوز) وهكذا حرف اليهود القصة بإضافة العهد الدنيوي الذي اقطع الله لهم به الأرض لمجرد انتسالهم من يعقوب وشبهوا الله بالمخلوق حين ذكروا أنه واقف على سلم على عقيدتهم الفاسدة.

ويقول جريفز وباتاي في كتابهما (أساطير عبرية) : إن بيت إيل كانت المعبد المركزي لمملكة الشمال بعد الانفصال وقد اضطر عزرا ان يقدم للسمرة بعض التنازلات ولعل هذا منها، وأن روايات تلمودية تقول إن لوز كانت في الواقع عند سفح جبل موريا وعند قمة هذا الجبل ـ أي عند الصخرة ـ كان السلم الذي رآه يعقوب، وقد كانت لوز مقدسة عند الأمم قبل بني إسرائيل. وفي سفر التكوين في الأصحاح الثاني عشر أن إبراهيم نصب خيمته شرق بيت إيل وغرب بلاد عاي وبنى هنالك مذبحاً للرب، قال في التحرير والتنوير : ولا أشك أن مسجد إبراهيم هو الموضع الذي بنى عليه سليمان مسجده.

رابعاً : الإسراء وإسرائيل :

يمكننا أن نستنتج من هذه المقدمات أن يعقوب عليه السلام سرى ليلاً مهاجراً إلى الله متوجهاً إلى بيت المقدس وهناك رأى في المنام معراجاً إلى السماء ولعل ذلك كان مبتدأ نبوته حيث أنه كان أصلاً على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق ولعله أشعر في هذه المناسبة بأن بنيه ـ بني إسرائيل ـ سيرثون هذه الأرض المقدسة التي كتب الله لهم لكي يقيموا فيها شرع الله مصداقاً لوعد الله لإبراهيم أن يجعل من ذريته أئمة وأشعر كذلك بأنهم سيفسدون في هذه الأرض وتنتقل الأمامة لأبناء إسماعيل مصداقاً لوعد الله لإبراهيم أيضاً بأن لا ينال عهده الظالمين وبأن إشارة هذا الانتقال ستكون هي أيضاً الإسراء بالنبي الخاتم من بني إسماعيل إلى نفس البقعة المباركة التي سترث أمته الوصاية عليها ليكونوا أئمة للناس، وقد تكرر هذا الاشعار إلى بني إسرائيل على لسان موسى وداود وعيسى بن مريم عليهم السلام.

وبهذا تتم الوحدة الموضوعية في افتتاحية السورة ويتناسب اسماها وتتحقق نبوءة ملاخي عن رسول الله رسول العهد الذي يأتي إلى هيكله ونبوءة المسيح عن ابن الإنسان الذي يأتي في السحاب ونبوءة اشعيا الثاني عن آخر سيسمى إسرائيل ويعقوب يوم الوعد الأول، (راجع الفصل السابق) والذي وصفه اشعيا الثاني بأنه عبدالله وجاء اسمه في القرآن الكريم بأنه عبدالله (أسرى بعبده)، قال في التحرير والتنوير: ولم يقع في القرآن لفظ العبد مضافاً إلى ضمير الغائب الراجع إلى الله تعالى إلا مراداً به محمد ﷺ والإضافة هنا إضافة تشريف لا إضافة تعريف لأن وصف العبودية لله متحقق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفاً، ولذلك قلنا في الفصل الأول أن عباداً لنا تدل على معنى أكثر من مجرد مخلوقات بشرية لأن لكل زيادة أو تخصيص في اللفظ زيادة وتخصيص في المعنى وخاصة في القرآن الكريم.

وقال في التحرير والتنوير: أسرى لغة في سرى بمعنى سار في الليل فالهمزة هنا ليست للتعدية لأن التعدية حاصلة بالباء، والتعدية بالباء أبلغ لأنها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل مثل قوله تعالى ﴿فاسر بأهلك﴾[هود: ٨١] فهنا تلويح إلى أن الله تعالى كان مع رسوله في إسرائه بعنايته وتوفيقه. وعليه فإن محمداً ﷺ هو إسراء الله من باب إضافة المصدر إلى الفاعل لوصف المفعول ويشيه قولنا أن المسيح هو كلمة الله.

خامساً: إسرائيل ويعقوب:

وقد زور اليهود أيضاً معنى كلمة يعقوب، يقول سفر التكوين

الاصحاح ٢٥ عن امرأة اسحق: فلما كملت أيام حملها إذا في جوفها توأمان فخرج الأول اكلف.. فسموه عيسو ثم خرج أخوه ويده قابضة على عقب عيسو فدعي يعقوب وقال نفس السفر الاصحاح ٢٧ على لسان عيسو بعد أن سرق منه أخوه بكوريته وبركته: (الأنه سمي يعقوب قد تعقبني مرتين: أخذ بكريتي وها هو ذا الآن قد أخذ بركتي) وقد كان هذا التزوير من كهنة المنفى ليحثوا اليهود ويشجعوهم ويباركوا لهم كل مكر وخديعة.

وإنما سمي يعقوب بذلك الاسم لأنه يعقب أباه وعمه وجده في الرسالة قال تعالى ﴿ فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾[هود: ٧١].

ومن أسماء رسول الله ﷺ : العاقب. روى البخاري ومسلم والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: (إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر - وفي رواية الكفرة - وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي - وفي رواية على عقبي - وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي) والحاشر دلالة على أن لا نبي بعده والعاقب أي جاء عقبهم. قال ابن الأعرابي: العاقب والعقوب الذي يخلف في الخير من كان قبله ومنها عقب الرجل أي ولده.

واسم العاقب يشترك مع اسم يعقوب في المعنى واللفظ وإذا كان يعقوب قد عقب إسحق بالرسالة، فإن محمداً قد عقب إسماعيل وقد عقب الأنبياء كلهم ولذلك فهو العاقب بأل التعريف.

وهنا نكتة ذكرها السيوطي في الاتقان قال: ولم يخاطب اليهود في القرآن إلا بيا بني إسرائيل دون يا بني يعقوب لنكتة وهي أنهم

خوطبوا بعبادة الله وذكروا بدين أسلافهم موعظة لهم وتنبيهاً من غفلتهم فسموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله تعالى فإن إسرائيل اسم مضاف إلى الله تعالى في التأويل. ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره به قال يعقوب لأنها موهبة بمعقب آخر فناسب ذكر اسم يعقوب لأنه يشعر بالتعقيب.

سادساً : ذرية من حملنا من نوح إنه كان عبداً شكورا

في هذه الآية عدة دلالات تتسق مع الوحدة الموضوعية لافتتاحية السورة، قال في التحرير والتنوير: (وإنما لم يقل ذرية نوح مع أنهم كذلك قصداً لادماج التذكير بنعمة انجاء أصولهم من الغرق، وفيه تذكير بان الله انجى نوحاً لأنه كان عبداً شكورا تحريضاً على الاقتداء به وفيه تعريض بأنهم إن أشركوا ليوشكن أن يعذبوا)، كما وفيه استبعاد الابن الكافر لنوح الذي لم يحمل في السفينة. أقول وبما أن نعمة الله عليهم كانت بسبب من نعمته على نوح فإن بني إسماعيل أيضاً يشتركون في هذا السبب، وإذا كان بنو إسرائيل قد كفروا وأفسدوا فستؤول الأمامة إلى بني إسماعيل الذين سيسلطون عليهم. (كما كان نوح أباً لفريقين أحدهم بار مطيع حملوا في السفينة والآخر هو الولد الكافر الذي غرق).

وأخيراً : وبهذا تتم العهود الربانية في هذه المنطقة الوسطى من الأرض التي ستكلف باخراج الناس من الظلمات إلى النور على يد محمد ﷺ. ترى لو كان محمد جاء بهذا الدين وبهذا القرآن من عنده فما الذي دعاه أن يقف ذات صباح ويخبر كفار بقريش أنه أسري به إلى بيت المقدس مما جعلهم يستهزؤون به وقد كان كفار

قريش أبعد ما يكونون عن الاهتمام ببيت المقدس وأبعد ما يكونون عن فهم نبوءات أهل الكتاب؟ ولماذا لم يجيء هذا الإسراء بعد الهجرة إلى المدينة حيث اتصل المسلمون باليهود وكانت بينهم مناوشات لسانية وحربية؟.

لقد كان الإسراء تدبيراً ربانياً قاطعاً في دلالته وتوقيته لهذا النبي الأمي عبدالله ورسوله عليه السلام الذي اصطف الأنبياء خلفه ليروا ذاك الذي بشروا به وتبشروا به والذي سيرث دعوتهم وأرضهم ومساجدهم ويؤدب أعداءهم ويقيم ملكوت الله في الأرض.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾.

الفصل السادس
المعنى الاسكاتولوجي لسقوط القدس

١ . تحريف النبوءة

اسكاتوس تعني الأخير ولوغوس الكلام أو البحث، فالاسكاتولوجي تعني بحث الأمور الأخروية وإنما لم أقل المعنى الأخروي لسقوط القدس لأن المسلم عندما يتحدث في الآخرة يتجه بتفكيره إلى يوم القيامة والحساب والجزاء أما الفكر اليهودي فقد أفرغ حيزاً ضئيلاً للحياة الأخرى بل ان الصدوقيين نفوا الآخرة تماماً وعندما يتحدث اليهودي عن الأسكاتولوجي فإنما يعني المصير المستقبل في هذه الدنيا لليهود كامة وهنا كذلك يعطي حيزاً ضئيلاً لمصير اليهودي كفرد ولذلك فلا عجب إن جاءت الآيات (١٠-٢١) من سورة الإسراء في تصحيح الفكر اليهودي كما تكّون في المنفى البابلي وبعده وفي تقرير الإيمان بالآخرة والجزاء الفردي والجماعي.

ولا شك أن القضاء إلى بني إسرائيل في الكتاب والذي جاء في سورة الإسراء والنبوءة إليهم بمجيء المسيح ومحمد عليهما السلام والذي جاء في سورة الأعراف (١٥٧) كانا متداولين بين اليهود واضطر أحبارهم للتعامل معهما بالتحريف حفاظاً على تسلطهم وعلى تضامنهم مع الحكام الظالمين في البنية الاجتماعية التي أشرفوا على

تركيبها كما بينا في الفصول السابقة. فكيف كان تعامل الأحبار مع النبوءات؟

قبل المنفى كان الأحبار يزعمون للعامة أن يوم الرب بعيد وأنهم بمعبدهم وذبائحهم مطمئنون إلى مصيرهم كما وجه بعضهم (مثل ناحوم وحبقوق) اللوم والنذير إلى الأمم الأخرى مما اقتضى جهداً متطاولاً من الأنبياء لتذكيرهم بالنذر ومن هؤلاء عاموس وهوشع وأرميا واكتفي هنا بهذا النص من اشعيا الأول(٢٩ : ١١-١٥).

فصارت لكم رؤيا الجميع كأقوال كتاب مختوم يناولونه لمن يعرف الكتابة قائلين أقرأ هذا فيقول لا أستطيع لأنه مختوم ثم يناول الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة فقال الرب بما أن الشعب يتقرب إلي بفمه ويكرمني بشفته وقلبه بعيد عني وإنما مخافته لي وصية بشر تعلموها لذلك ها أنذا أعود أصنع بهذا الشعب عجباً عجاباً فحكمة حكمائه تضمحل وعقل عقلائه يفني، ويل للذين يتعمقون ليكتموا عن الرب مشورتهم فاعمالهم في الظلام وهم يقولون من يرانا أو من يعلم بنا؟.

والنص يدل بوضوح على أن الأحبار كانوا منذ ذلك الحين يحرفون الكلام ويخفون معانيه في دسائسهم التي لم تنقطع منذ ذلك الحين وأن التحريف والإخفاء كان موجهاً إلى «رؤيا الجميع» أي إلى القضاء الذي كان موجهاً إليهم وكانوا يعلمونه جيداً والذي سماه السموأل ها أزينو أي الايذان (راجع الفصل الرابع).

وسقطت القدس بيد البابليين الكلدانيين (٥٨٩-٥٨٦م) قبل الميلاد وكان سقوطها نذيراً باقتراب الوعد وكان لابد للكهنة والأحبار

الذين حملهم نبوخذ نصر معه إلى بابل من تدارك الوضع حتى لا يفلت زمام الأمور من أيديهم ولا ينكشف كذبهم لعامتهم ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون﴾ [البقرة:٧٨] فقاموا بإعادة صياغة للنبوءات ولنتأمل كيف قاموا بذلك.

القضاء الأصلي إلى بني إسرئيل انهم سيسكنون الأرض[الإسراء: ١٠٤] وسيفسدون فيها للمرة الأولى (الإسراء٤) فإذا جاء وعد عقاب المرة الأولى بعث الله عليهم عباداً أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار [الإسراء: ٥] وهؤلاء العباد هم ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩] قائدهم محمد عبدالله وعلامته الإسراء به إلى المسجد ثم سيدخل أتباعه المسجد للمرة الأولى وقد جاءت الإشارة إلى دخولهم هذا متفرقه عن ذكر جوسهم خلال الديار وبمناسبة ذكر دخولهم المسجد للمرة الثانية ولعل ذلك للفترة الزمنية بين الإسراء والجوس خلال الديار ثم دخول المسجد كما ولانهم عند دخولهم للمسجد سيكونون في حالة من التواضع هي غير حالة البطش والشدة وجوس الديار، ومجيء هذا النبي فيه فرصة الرحمة لبني إسرائيل إن آمنوا ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ [الإسراء:٨] ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف:١٥٧]، وعليه فمجيء النبي الأمي سيكون مسبوقاً بمجيء الانجيل الذي هو بشارة به، أي مسبوقاً بمجيء المسيح الذي سينزل عليه الإنجيل وهو الكتاب المبشر بمحمد ﷺ.

وكانت عادة اليهود مسح أنبيائهم وملوكهم وكهانهم بزيت المعبد للدلالة على تكريسهم لمهمتهم فما هي المهمة التي كرس لها المسيح حتى أصبح هذا الوصف علماً له(١٠). إن مهمة المسيح محددة في الآية السادسة من سورة الصف ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول ياتي من بعدي اسمه أحمد﴾ فأما تصديقه للتوراة فقد فصلته سورة الزخرف ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ ومن هذا الذي اختلفوا فيه هو بالذات ما آل إليه تفسير النبوءة بالنبي الأمي وما هية دور المسيح بالذات، فالمسيح يبشر بالنبي الأمي من بعده أى بانتهاء النبوءة من بني إسرائيل وانتقالها إلى بني إسماعيل ضمن العهد الإبراهيمي. فالمسيح إذن يبشر بالنبي الذي سيعيد المسجد إلى حظيرة التوحيد، وعليه فقد رفض المسيح الاعتراف بأهليتهم لرعاية المسجد بل وأنذرهم باندثاره إلى حين ياتي أحمد ﷺ، كما سنبين لاحقاً.

وكان تحريف أحبار المنفي للنبوءة بأن اعتبروا أولاً أن القضاء قد تم بسقوط القدس على يد البابليين ـ ولعله من هنا جاء هذا القول إلى المفسرين المسلمين القدامى ـ واعتبروا ثانياً أن المسيح هو الذي سيعيد بناء الهيكل وأنه سيكون قائداً عسكرياً أو زعيماً سياسياً أي ملكاً وأنه بإعادة هذا البناء سترجع الأمور إلى سابق عهدها من تسلطهم على الشعب وتضامنهم مع الطبقة السياسية الحاكمة ولذلك وبمحاولات يائسة اطلقوا لقب المسيح على زر بابل ـ أي المولود في بابل ـ والذي عاد منها حاكماً على القدس عاملاً للملك الفارسي

داريوس وأوجدوا له نسباً إلى داود ـ راجع نبوءة حجاي ٢ :٢٣ ـ ثم اطلقوه على يهوذا المكابي الذي ثار على أنطيوخوس اليوناني وأطلقوه على باركوخبا (ابن الكوكب) الذي أسموه فيما بعد باركوزبا (ابن الكذبة) حين فشلت ثورته بل لم يترددوا في البداية في اطلاقه على كورش الفارسي نفسه الذي أرجعهم إلى فلسطين وسمح لهم بإعادة بناء الهيكل رغم تصريحهم بأنه لا يعرف الرب فالمهم في المسيح لديهم أن يعيد إلى اليهود مجدهم السياسي الدنيوي وهو غايتهم الوحيدة من الدين ولذلك سموه المسيح بن داود .

وثالثاً : فقد اقترنت آية ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ بذكر البشارة إلى أهل الكتاب بمحمد ﷺ في سورتي الفتح والصف وأما في سورة التوبة المتأخرة في النزول فقد اقترنت بأمر الله للمسلمين بجهاد أهل الكتاب الذين رفضوا الاعتراف بهذه الرسالة وأرادوا إطفاء نور الله وجاء هذا التنديد بهم كذلك في سورة الصف وعليه فإن النبوءة الأصلية هي أن المسيح يبشر بالنبي الأمي الخاتم الذي سيظهر دين الله على الدين كله وحيث أنهم استبعدوا الدور المبشر للمسيح بالنبي الإسماعيلي بعده فقد كان الوجه الثالث لتحريف النبوءة هو أنهم جعلوا المسيح هو الذي سيأتي بملكوت الله وهو عندنا انتشار دين الله في الأرض وسيادة شريعته ولكنه عندهم أن يحكم بنو إسرائيل العالم ويستعبدوا الأمم . وعدم ادراك بعض المفكرين المسلمين لهذا التحريف المنهجي في النبوءات الكتابية جعلهم يكتبون أن محمداً نبي الإسلام هو المسيا المنتظر (راجع كتاباً بهذا الإسم للشيخ أحمد حجازي السقا) .

ورابعاً فقد أنكروا مجيء النبي الإسماعيلي الخاتم وعملوا على إزالة كل البشارات به (راجع الفصل الثالث)، وكان من ذلك تحريفهم لهوية الذبيح التي نقلوها من إسماعيل إلى إسحق عليهما السلام وسنتحدث عن ذلك في الفصل الثامن إن شاء الله وقد انصب كرههم على العرب الإسماعيليين الذين سيزيلون ملكهم ويكشفون زيفهم إلى أن جعلوا الله يندم على خلقهم فقد جاء في التلمود وعلى لسان الرابي برخيا وتكرر ذلك أكثر من مرة في التلمود (أربعة أوجدها الله ثم ندم على ذلك وهي تشريد اليهود وخلق الكلدانيين ووجود العرب والنزوع إلى الشر) فأما النزوع إلى الشر فيعني عقابه لهم على منكراتهم راجع سفر الخروج ٣٢ : ١١-١٤ وهو يروي غضب الله على بني إسرائيل ثم ندمه على فعل الشر بشعبه وهكذا نجد أن هذه الأمور الأربعة التي أندموا الله عليها تعالى علواً كبيرا تتسق فيما بينها ضمن فهم القضاء الوارد إلى بني إسرائيل في سورة الإسراء لأن خلق الكلدانيين وتشريد اليهود كان هو النذير بمجيء النبي العربي وهذا كله شر من الرب إليهم ولذلك فاحبار اليهود إلى زمن التلمود كانوا لا شك يعلمون بحقيقة النبوءة التي حرفوها.

أما خامساً وأخيراً في إطار تحريف النبوءة فكان أنهم طمسوا تماماً ذكر رد الكرة بهذا المعنى وإنما جعلوا كل صفات قوتهم والتي ستكون عند رد الكرة لهم تجيء مع مجيء المسيح المزعوم ولذلك فهم لم يؤمنوا بالمسيح الحقيقي لأنه جاء مبشراً بمحمد ﷺ ولم يوجد لهم ملكاً دنيوياً وما زالوا ينتظرون مسيحاً يرد لهم الكرة ورغم أن الكرة قد ردت لهم اليوم فلم يأتهم المسيح المنتظر ولهذا تكفر بعض الأحزاب الدينية

(مثل ناطوري كارتا راجع كتاب القوى الدينية في إسرائيل) دولة إسرائيل لأنها لم تقم حسب السياق الذي حرفوه أي أنه لم يسبقها مجيء المسيح المنتظر.

وقد نجح الأحبار في لم شمل اليهود حولهم للتسلط عليهم ومنعهم إلا القليل ممن هدى الله من الإيمان سواء بالمسيح أو بمحمد عليهما السلام وحافظوا على استمراريتهم وانتظارهم المسيح الموهوم، وبذلك تم القضاء إليهم في إعادة الكرة هذه الأيام ولنقرأ هذه النص لروفائيل باتاي من المختصين باليهودية في كتابه النصوص المسيحانية: «وعندما لفت أعمدة اللهب الهيكل صعد ثلاثة كهنة شبان إلى السطح وألقوا بمفاتيح بيت الله نحو السماء فامتدت يد نزولاً والتقطت المفاتيح، قال الكهنة إلى متى أدوناني إلى متى؟ فقال صوت سماوي لا أكثر من يومين يا أولادي فعرفوا عندئذ أن سبي الشخينة وتشتيت إسرائيل سيدوم ألفين من السنين فقالوا له يا سيد الكون كيف يستطيع بنو إسرائيل تحمل الفي سنة من العذاب فقال لهم ساعطيهم شعاعاً من النور ليضيء ليل تشتتهم ساعطيهم من لن يشاهدوا أبداً لكنهم سيشعرون بوجوده في كل الأوقات. من لن يأتي أبداً لكنه سيكون على وشك القدوم دوماً، من سيفتشون عنه لكنه يوجد فقط في قلوبهم ساعطيهم إياه وهو لن يكون أبداً ولكنه سيساعدهم على البقاء. ساعطيهم المسيح المنتظر» ولا غرو إذن أن يتعلق اليهود في تاريخهم الطويل بعدد كبير من المسحاء الكذبة. ولا غرو كذلك أن يرفضوا الاعتراف بالمسيح الحقيقي الذي لم يكن على الصورة التي ابتدعها الكهنة وجاءهم بما لا تهوى أنفسهم فكيف كان

موقف المسيح عليه السلام منهم؟ ومن هيكلهم؟

٢- موقف المسيح

جاء المسيح عليه السلام مبشراً بمحمد ﷺ ومندداً بالكتبة والفريسيين الذين ليسوا أهلاً لرعاية المسجد، ولذلك أخبرهم بأن هيكلهم لن يبقى فيه حجر على حجر حتى مجيء الذي يطهره وسننقل هنا مقتطفات من الفصلين ٢٣ و ٢٤ من انجيل متى على لسان المسيح عليه السلام تبين موقفه «الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون فإنكم تغلقون ملكوت السموات في وجوه الناس فلا أنتم تدخلون ولا الداخلين تتركونهم يدخلون. الويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء ومن حلف بذهب الهيكل يطالب. أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم. يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم من مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا. هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً فإني أقول لكم إنكم من الآن لا ترونني حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب» إشارة إلى النبوءة في الزبور عن محمد ﷺ (راجع الفصل الرابع) ثم أشار إلى الهيكل وقال لتلاميذه «الحق أقول لكم إنه لا يترك هنا حجر على حجر إلا ينقض».

ثم قال «احذروا أن يضللكم أحد. يقوم كثيرون من الأنبياء الكذبة ويضلون كثيرين ولكثرة الإثم تبرد المحبة من الكثيرين ومن يصبر إلى المنتهي يخلص وسيكرز بانجيل الملكوت هذا في جميع المسكونة شهادة لكل الامم وحينئذ ياتي المنتهى فمتى رأيتم رجسة الخراب التي قيل عنها بدانيال النبي قائمة في المكان المقدس ليفهم القارئ فحينئذ

الذي في اليهودية ليهرب إلى الجبال لأنه سيكون حينئذ ضيق شديد وحينئذ تظهر علامة ابن البشر في السماء وتنوح جميع قبائل الأرض ويرون ابن البشر آتياً على سحاب السماء بقوة وجلال عظيمين».

ومعنى انجيل الملكوت البشارة بسيادة دين الله كما فسرنا ذلك سابقاً وأما رجسة الخراب فهي ما أصبح عليه الهيكل في ظل البيزنطيين بعد أن تنصر قسطنطين فقد جعلوه مزبلة وغطوه بالقاذورات يقول نورمان كوتكر في كتابه «أورشليم الدنيوية» (اعتاد سكان المدينة أن يفرغوا سطول قاذوراتهم في الهيكل كإشارة إلى احتقارهم للدين اليهودي ويروي أن سطول الغائط كانت تحمل من القسطنطينية لتفرغ هناك ويظن اليهود أن نصارى ذلك الوقت كانوا يعتقدون بأن لهم جائزة في الجنة لكل سطل أوساخ يودع هناك وقد امتلأ المكان بالقاذورات بحيث أغلق المدخل مما اضطر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتبعه صفرونيوس إلى الزحف على يديه وقدميه للدخول إليه ثم قام عمر والمسلمون بتطهير المسجد. ومجيء ابن البشر على السحاب هو الإسراء بمحمد ﷺ الذي بشر به المسيح أما الأنبياء الكذبة وكثرة الاثم فهي إشارة إلى تحريف المسيحية نفسها بحيث أصبحت عبادة للمسيح نفسه.

وإذا كان المسيح قد ندد باورشليم قاتلة الأنبياء أي باليهود فقد حاول هؤلاء أن يقتلوه هو أيضاً، ولكن الله انجاه فاتجهوا إلى تحريف رسالته وكان لبولص الطرسوسي الباع الأطول في ذلك حيث قلب المسيحية إلى دين لم يكن المسيح نفسه ليعرفه كما بين البروفسور جينبير في تاريخ المسيحية وحيث أن المسيح بشر بأن العهد سينقل إل

بني إسماعيل وحيث قلب بولص بشارات المسيح بمحمد على إنها بشارات المسيح بنفسه فقد جعل من رسالة المسيح نفسه عهداً جديداً وعلى هذا سار النصارى في تقسيم الكتب إلى عهد قديم وعهد جديد أما ابن الإنسان الموعود قدومه في السحاب أي الإسراء بالرسول عليه السلام فقد جعله بولص أيضاً للمسيح وهكذا أصبح النصارى يتوقعون القدوم الثاني للمسيح تتبعه الألف سنة السعيدة من الملكوت واستغل اليهود حديثاً هذه النظرة فجعلوا قيام دولة إسرائيل وتمكينها شرطا لعودة المسيح فعاد النصارى يدعمون دولة اليهود الذين في زعمهم صلبوا المسيح انتظاراً لعودة المسيح!.

٣- بسيد ابيغرافا

إذا كان الأحبار والكتبة قد أطمعوا الشعب بالنصر والاستقرار السياسي والاجتماعي إذا خضعوا لهم بينما كانوا هم في الواقع سبب هزيمتهم باعتبار تسلطهم وتضامنهم مع الظلمة والمستغلين وإذا كان الأحبار لهذا الهدف قد أعادوا صياغة النبوءات والكتب فقد أثبت الواقع لبني إسرائيل ان كل المسحاء الذين اعتمدهم أحبار يهود قد فشلوا في تحقيق الوعود ولذلك فقد تشكك كثيرون في النسخة التي قدمها الكتبة من النبوءات كما أنه لا شك قد كانت هناك بقايا من علماء صالحين مطلعين على النبوءات الحقيقة. وعليه فقد ظهر من استنكر صنيع الأحبار ولكن وتحت ضغط القهر السياسي الذي مارسه الأحبار والمتسلطون وخاصة بتقربهم من ملوك الغزاة مثل الكلدانيين والفرس واليونان وتقديمهم كل ما يلزم لهم ولو كان اعراضهم كما تشير إلى ذلك قصة استير الرمزية (أو الواقعية؟) وتعاونهم معهم ضد

الرافضين من قومهم فقد اضطر بعض الصالحين لإعادة كتابة العهود والوعود على شكل رؤى وربما يكونون قد رأوها حقاً ومن المعروف أن العامة. تميل دائماً إلى تصديق الرؤى وتكريم الرائين، ولذلك ربما قام غير الصالحين كذلك باختلاق رؤى أو تحريف رؤى الصالحين ومن هذا كله تجمعت كتب كثيرة اختلط فيها الحق بالباطل تتحدث عما سيكون (الأسكاتولوجي) وشكلت هذه الكتب شغلاً شاغلاً لليهود أيام المحن في محاولة فهم المستقبل وتكونت منهم فرق كثيرة وكثرت هذه الكتب في القرنين السابقين لمجيء المسيح عليه السلام وتسمى اليوم (بسيد ابيغرافا) أي الأسفار المنسوبة إلى غير أهلها وذلك لأن كاتبيها خوفاً من اضطهاد الصدوقيين والفريسيين لجؤوا إلى كتابتها تحت أسماء مستعارة لأنبياء قدامى مثل موسى وإبراهيم واينوخ (ادريس؟) وعبروا عنها بالرؤى والرموز. وكان من هذه الفرق من اعتزل الحياة العامة وأقاموا مستعمرات في صحراء القدس مثل فرقة قمران (الاسينيين؟) في انتظار التغيير المرتقب واكتشاف لفائف قمران (أو لفائف البحر الميت) حديثاً (ابتداء من سنة ١٩٤٧) يعطي زخماً لبحث التطلعات اليهودية في الفترة حول ميلاد المسيح وفهم حقيقة التحريفات اليهودية وقد مثلنا لذلك في الفصل الرابع.

وبعد وفاة المسيح ورفعه وسقوط الهيكل مجدداً قام اليهود بجمع الكتب واعتماد التي ظنوا أن لا خشية منها على استمرارية اليهودية وأعلنوا إغلاق باب الرسالات بعد عزرا، وذلك لاستبعاد التأثير النصراني خصوصاً ثم قاموا على مدى بضعة قرون بكتابة المشنا والجمارا والمدارش لشرح الكتب المعتمدة بحيث يقضي على البقية

الباقية مما يمكن أن لا يكونوا قد تداركوه في اجتماعهم العاجل في يابنيه وبذلك ظنوا أنه لن تقوم الرسالة الخاتمة التي بشر بها المسيح إلا وقد أوصدوا دونها أبواباً حديدية فاغلقوا بذلك قلوب وعقول «الشعب المختار» دون التحرر من ربقة استعبادهم وقد نجح مسعاهم إلى حد كبير.

ولكن النصارى كانوا قد حملوا معهم كثيراً من تراث رؤى اليهود قبل الميلاد ثم كانت لهم رؤى خاصة كذلك (مثل رؤيا يوحنا اللاهوتي التي يختتم بها العهد الجديد) وكان لكثير منها وقع كبير في التبشير النصراني ثم منعت كذلك في البلاد التي سيطرت عليها الكنيسة الرومانية بعد قسطنطين ولكنها استمرت في الوجود في غيرها مثل الحبشة. ومنذ عهد مبكر قامت الكنيسة الرسمية بمنع الرعايا من قراءة الكتب المقدسة الرسمية (وغير الرسمية من باب أولى) وجعلتها حكراً على رجال اللاهوت. ومع قيام الاصلاح البروتستانتي ترجمت الكتب الرسمية إلى اللغات العامية وأصبح بالإمكان الإطلاع عليها للمسيحي العادي ثم ومع تقدم البحث قام البروتستانت بشكل خاص بتجميع وطبع ما استطاعوا من الكتب المقدسة غير المعتمدة في الكتاب المقدس الرسمي وكثير منها من الرؤى الاسكاتولوجيه. وقد استغل اليهود هذا الوضع لإنشاء ما يسمى الإنجيلية الصهيونية التي ترى قيام إسرائيل ممهداً لعودة المسيح.

والآن ماذا يهمنا من ذلك كله؟ وهل دراسة هذا التراث من الترف الفكري للمسلمين؟ لقد رأينا أن اضطراب اليهود والنصارى في فهم البشارات ناتج عن عدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ ويمكننا إذا عرضناها

على ضوء إيماننا برسالة محمد ﷺ أن نصل إلى فهم أعمق لمعانيها ولحقيقة ما جرى تاريخياً وتقديم نظرية إسلامية متكاملة لهذا التراث وإذا كان هذا سيفيدنا في بيان زيف فكرة القدوم الثاني الذي يدعم البروتستانت إسرائيل من أجله فإن الهدف الأسمى هو إعلاء كلمة الله عزو وجل وإقامة الحجة على أهل الكتاب من جديد وهذا نحن مكلفون به كامة محمد ﷺ وخاصة في هذا الزمن الذي يسعون فيه لطمس معالم هذا الدين وجعله واحداً من أديان سماوية كغيره من الأديان بينما هو الدين الذي لا يقبل الله عز وجل سواه.

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.

الفصل السابع

المعنى الإسرائيلي لإغتصاب القدس

استقرأنا في الفصل السابق أثر القضاء الوارد في سورة الإسراء إلى بني إسرائيل على حركتهم في التاريخ وبخاصة على أحبارهم الذين قادوا هذه الحركة منذ وفاة سليمان عليه السلام حيث تجاهل هؤلاء في البداية هذا الانذار المتضمن التقرير بافسادهم حتى إذا سقطت القدس بيد الكلدانيين وأخذت صفوة «الشعب» من الحكام والأغنياء والمتنفذين والأحبار إلى بابل سارع هؤلاء الأحبار وفي المنفى بتدارك الأمر وتحوير النبوءة وتلفيق الكتب في إحدى أكبر المؤامرات العقيدية في التاريخ.

كان سقوط القدس بيد الكلدانيين (٥٨٦ ق.م) صدمة لبني إسرائيل لم يكونوا يتوقعونها كما تشير إلى ذلك معاناة أرميا الذي حذرهم منه طويلاً. وكأنما كان سقوط القدس إشارة وانذاراً لهم على بدء العقاب الذي سيستمر في تشريدهم إلى أن يخرجوا من الأرض نهائياً وتنزع منهم راية العهد الإبراهيمي على يد الذين سيستخلفون على الأرض والعهد وهم أمة محمد ﷺ والذين فتحوا بيت المقدس سنة ٦٣٦م. وفي منتصف هذه الفترة بين الإنذار الأول والطرد بالضبط جاءت رسالة عيسى عليه السلام انذاراً نهائياً وبشارة بقرب تحقق الوعد بمحمد عليه السلام.

وقبل النفي إلى بابل كان الأحبار كمعظم رجال الدين الرسميين في كل العصور قد تضامنوا مع الحكام وزينوا لهم إفسادهم وتسلطهم وأوهموا العامة انه لا يمكن لله ان يعاقب أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب.. وفي المنفى قاموا بتحريف الكتب لصرف بني إسرائيل عن المعنى الحقيقي لمصابهم وهو انحرافهم عن دين الله ولذلك كرسوا لهم فكرة الاختيار لمحض العرق وإعطاء الأرض وعداً وليس عهداً وذلك تمهيداً للسيطرة على البشرية والانتقام من أعدائهم. وفي هذه الكتب جعلوا لله غاية واحدة من خلقه بل حتى من وجوده ذاته عز وجل وهي ضرب الشعب والملوك إذا تمردوا على الأحبار وضرب الأمم الأغيار عندما يعود الشعب والملوك لطاعة الأحبار وبناء عليه فقد قدموا نسخة ـ مكيفة ـ للنبوءة تتسق مع أهدافهم فجعلوا سقوط القدس تنفيذاً لمقتضى وعد المرة الأولى وبشروا «بمسيح» تعود لهم به الكرة على عدوهم وهم الكلدانيون بداية ثم أصبحوا بالتدريج يشملون الإنسانية كلها ويتحقق بهذا «المسيح» المزعوم حكم إسرائيل للعالم كله إلى الأبد.

وبهذه النسخة «المكيفة» من النبوءة نجحوا في احتواء صدمة سقوط القدس مؤقتاً ولكن الكلدانيين هزموا ودمرت دولتهم على يد الفرس الوثنيين ولذلك لم يجد اليهود حرجاً من اعتبار كورش مسيحاً رغم انه لا يعرف الله باعترافهم ولكن هذا المسيح الوثني لم يمكنهم من حكم العالم الذي وعدوا أنفسهم به ولذلك كان لابد من مسيح أو مسحاء آخرين. وقد تبدل أعداؤهم الذين كان المسيح مطلوباً لإبادتهم وتجددوا وتزايدوا مع الزمن بتزايد وتجدد الذين قهروا اليهود

وسيطروا عليهم بدءا من الكلدانيين إلى الفرس أنفسهم - الذين أبادهم أو أباد غير الراضخين منهم للشعب المختار على الأقل مردخاي واستير في قصتهم المخيلية والتي سجلها سفر استير «العاهرة المقدسة» في العهد القديم - إلى اليونان ثم الرومان.

وجاء المسيح الحقيقي عيسى بن مريم عليه السلام زمن الرومان وطمع اليهود في البداية في أن يقوم لهم بالدور الذي فصله أسلافهم له وهو «إعادة» الكرة لهم أي نصرهم على الرومان، ولكن رسالته لم تكن كذلك بل كانت كما جاءت في النبوءة الأصلية بشارة بالنبي من غيرهم[١١] الذي سيبدد مطامعهم ويصحح أوهامهم وينهي فسادهم ويرحمهم الله به إن أطاعوه. لذلك رفضوا الاعتراف بالمسيح وحاولوا قتله واضطهدوا أتباعه وسربوا إليهم بولص الفريسي الذي قام بتقديم نسخة ثالثة من النبوءة مفصلة على قد المعتقدات الشائعة في تلك الأيام. وبمقتضى هذه النسخة لم يعد المسيح النبي الأخير من بني إسرائيل الذي ينذرهم ويبشرهم بالنبي الخاتم من بني إسماعيل حسب المقتضى الأصلي للنبوءة كما لم يعد الملك الذي سيعيد سطوة اليهود في الأرض حسب نسخة عزرا وأحبار اليهود وإنما أصبح ابن الله الحي الذي افتدى خطيئة البشرية بموته المزعوم على الصليب. وتاه النصارى بعد ذلك في تصميم العلاقات بين الابن والأب ثم الروح القدس والأم - ثيودوكس والدة الله - تعالى الله علوا كبيراً وبذلك نجح اليهود في إخراج هذه الديانة الجديدة نهائياً من حلبة التوحيد التي ظنوا أنهم فيها ويحتكرونها وكان ذلك نصراً عقيدياً حاسماً لهم في ظنهم.

على أن اعتناق قسطنطين للمسيحية جعل أتباع هذه الديانة

الجديدة أي الرومان ثم البيزنطيين هم السادة الجدد سواء في فلسطين أو في الشتات ولذلك فقد انصب عليهم حقد التلمود الذي كتب بين القرنين الثاني والسادس للميلاد كما انصب هذا الحقد على المسيح نفسه الذي خيب آمال الشعب المختار فالتلمود يصم المسيح بأنه ابن زنا وكلما ورد ذكره في التلمود الحقوه بقولهم «ليبلى الاسم الشرير» أما عقابه في الجحيم فهو اغراقه في غائط يغلي.. وقد ضم التلمود كل القيود والأغلال التي ابتدعها الأحبار لتحصين الشعب عند مجيء النبي الخاتم والذي علموا من عيسى عليه السلام بأن موعده قريب وبذلك تمكن الأحبار من إعطاء الصورة النهائية لليهودية كما أرادوها قبل مجيء محمد ﷺ مباشرة.

وبمجيء الإسلام تحقق وعد عقاب الإفساد الأول وبإسرائه عليه السلام إلى القدس وامامته للأنبياء جميعاً بما فيهم أنبياء بني إسرائيل انتقل العهد الإبراهيمي إلى فرع إسماعيل، وقد كان الإسراء بمحمد ﷺ هو الإشارة إلى إنتهاء دور بني إسرائيل الذي ابتدأ بإسراء يعقوب نفسه إلى بيت المقدس والذي به سمي إسرائيل.

وبإعادة القبلة إلى المسجد الحرام في مكة علم بأن هذه الرسالة الخاتمة التي جمع لها المسجدان والقبلتان قد احتوت رسالة بني إسرائيل وتجاوزتها إلى الأمم جميعاً وأن الفرصة التي أعطيت لبني إسرائيل قد انتهت.

وقد عرف اليهود محمداً ﷺ وأيقنوا صدق رسالته ولكنهم إلا قليلاً منهم لم يقبلوا أن يدخلوا في دين الله كباقي الناس ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء..﴾

[البقرة:١٣] وقصة حيي بن أخطب عالمهم وحبرهم خير نموذج لرد فعلهم على مجيء الرسول الموعود رغم أنفهم.

روى ابن هشام في سيرته (١٦٥,٢) عن صفية بنت حيي أم المؤمنين أن عمها أبا ياسر سأل أباها حييا بعد اجتماعهما الأول مع رسول الله ﷺ: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم قال: فما في نفسك منه؟ قال عداوته ما حييت.

وهكذا صمم اليهود على محاربة دين الله وهم يعلمون إنه دين الله. وبالتعبير القرآني هم يشترون الضلالة أي يستبدلون الضلالة بالهدى عن عزم وتصميم ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا، من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه... » النساء ٤٤-٤٦ ويمضي السياق فيفسر دوافعهم الكامنة ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا﴾ [الآية :٤٩] ثم ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ [الآية: ٥٤].

وفي ثنايا السياق الذي يبين دوافعهم الخبيثة يعرض وسائلهم الخبيثة وهي التضامن مع الوثنيين والكفار عموماً في حرب الحق الذي جحدوه ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا﴾ [الآية: ٥١].

وهكذا دخل اليهود المعركة وبكل الوسائل مع دين الله، وفي

البداية كانت معركة مباشرة مادية يائسة ذلك أنهم كانوا يعرفون بمقتضى النبوءة أنهم لن ينتصروا فيها. يشير إلى ذلك تعبير حيي بن أخطب: عداوته ما حييت. فهو يعرف أنه سيموت ويبقى دين الله. وبعد غزوة قريظة وقبل أن تضرب عنق حيي نفسه وهو الحبر اليهودي بعد الكيد الذي كاده للمسلمين تقدم فقال «يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل» ثم جلس فضربت عنقه.

وانتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً وفتحوا بيت المقدس وكان شرط العهدة العمرية على أهلها أن لا يساكنهم فيها اليهود. ودخل اليهود في مرحلة الكمون ـ مثل الأميبا التي تتحوصل في الجفاف إلى أن تجيء ظروف رطوبة أفضل فتنشط من جديد ـ وفي هذه المرحلة جد اليهود للأعداد لإعادة الكرة لهم وامتد هذا الاعداد قرابة الأثني عشر قرناً وهو زمن مماثل للفترة ما بين سقوط القدس بيد الكلدانيين وبين بعثة محمد ﷺ وفتح القدس بيد المسلمين.

وفي أثناء هذه الفترة الطويلة وانتظاراً لإعادة الكرة لهم ولكي يستطيعوا الاستمرار في الوجود نمّى اليهود عند أنفسهم فكرة الأقلية المتميزة التي يحق لها استخدام كل الوسائل لتدمير الآخرين في سبيل بقائها هي وهي فكرة الشعب المختار يقول ماركس في كتابه المسألة اليهودية نقلاً عن المفكر الألماني برونو بوير: «اليهودي يرى أن من حقه الانفصال عن سائر البشرية وهو لا يشارك مبدئياً في حركة التاريخ لأنه يطمح إلى مستقبل ليس بينه وبين المستقبل العام للإنسان أية سمة مشتركة إنه يعتبر نفسه بمثابة عضو من الشعب اليهودي ويرى أن

الشعب اليهودي هو الشعب المختار» ويضيف ماركس «إن طبيعته اليهودية والمحدودة تنتصر دائماً وفي النهاية على التزاماته الإنسانية والسياسية».

ولم يكن اليهود ليستطيعوا أن يجاهروا الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها من مسلمين ونصارى بحقيقة تصوراتهم وأهدافهم ولذلك لجؤوا إلى الازدواجية والعمل التحتي واستخدموا وسائل أهمها تدمير البنية الفكرية للمجتمعات التي يعيشون فيها واثارة الفتن وتدمير الاقتصاد بمزاولة الربا وتدمير الأخلاق باشاعة الزنا والتسرب إلى البيوتات المتنفذة ومثالهم في ذلك استير العاهرة المقدسة التي خصص لتقديسها سفر في الكتاب المقدس، وراجع كذلك قصة سارة المرأة التي هدمت الامبراطورة العثمانية للكاتب التركي لطفي اكدوغان.

وكلما كانت تتكشف أجزاء من حقيقتهم في المجتمعات التي عاشوا فيها كانوا يقابلون بالاضطهاد والازدراء وعليه تكونت لديهم نفسية الجيتو الذي عزلوا فيه وعزلوا فيه أنفسهم كيلا يذوبوا وفي مقابل اضطهاد الناس لهم بسب أعمالهم كانوا ينمون الشعور بالتفوق وبانهم منبوذون لأنهم متفوقون وهو ما يسمى في الأمراض النفسية بالبارانويا (شعور الاضطهاد) الناتج عن الميجالومانيا (شعور العظمة) وفي الواقع فقد كانوا يعيشون في الذلة والمسكنة يجترون أحقادهم الناتجة عن فعالهم ويدبرون ليوم الانتقام ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من اناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [آل عمران: ١١٢].

ومن باب مذلتهم وخبثهم تظاهر بعضهم بالدخول في الإسلام ليكيدوا له وكان لعبد الله بن سبأ دور كبير في الفتنة زمن عثمان والقول بعد ذلك برجعة علي رضي الله عنه. وكان لكعب بن ماتع ووهب وهمام ابنا منبه واضرابهم دور كبير في ادخال الإسرائيليات إلى الفكر الإسلامي، ودخل موسى بن ميمون في الإسلام في المغرب ثم فر إلى مصر وارتد إلى اليهودية وادعى انه كان قد أجبر على الإسلام وبذلك نجا من حد الردة ثم ترقى في الدولة واستخدم الفكر الإسلامي في تشذيب الفكر اليهودي بحيث أصبح أكبر مجددي الفكر الإسرائيلي في القرون الوسطى وكتبه تنضح بالتحريض على محمد ﷺ أو الإسماعيلي كما يسميه فيها واعداد العدة للانتقام ودخل شبتاي صبي المسيح الدجال في القرن السابع عشر في الإسلام بعد انكشاف زيف مسيحانيته وأسس طائفة الدونمة أي المزدوجة التي انتجت اتاتورك وصحبه من الاتحاد والترقي وكان لها دور كبير في هدم الخلافة.

وتظاهر آخرون بالدخول في النصرانية وأبرز أمثلتهم آل برليوني الذين كان منهم عدة بابوات وكان لهم دور كبير في دفع الشعوب الأوروبية إلى الحرب الصليبية ـ راجع بابوات من الحي اليهودي ليواكيم بارنيز ـ وإذا أكانت الجيوش الصليبية قد ذبحت كثيراً من اليهود في طريقها إلى الشرق الإسلامي فلا بأس من بعض التضحيات في سبيل الوصول إلى الهدف النهائي كما تكررت تجارب مماثلة في عصرنا الحديث في مسرحيات الحروب التي خاضتها إسرائيل مع الأنظمة العربية.

وفي القرن التاسع عشر وبعد انهيار الكنيسة الغربية وإعلان العلمانية في أوروبا ـ وقد أسهم اليهود في كلا الحدثين ـ استطاع هؤلاء أن يكونوا منظمات ومؤسسات فكرية ومالية ضخمة مكنتهم من السيطرة على مراكز النفوذ في العالم الغربي وسوقه باتجاه تنفيذ مخططاتهم وقد عمل اليهود على قمع كل من عاند سيطرتهم الخفية على مقدراتهم وكان لهم دور كبير في إسقاط روسيا القيصرية والمانيا النازية وكذلك وأهم من ذلك فيما يعنينا في إسقاط الدولة العثمانية التي وقفت حجر عثرة أمام أطماعهم في فلسطين.

وبسقوط الدولة العثمانية ومجيء الانجليز ابتدأت العودة اليهودية إلى فلسطين، واستطاع اليهود جر العالم الأوروبي الصليبي والبروتستانتي منه بالذات إلى تأييدهم في اغتصاب فلسطين وذلك بانتاج ما يسمى بالانجيلية الصهيونية التي تقول بأن المسيح سيعود ليحكم العالم الف سنة ولا بد من عودة اليهود إلى فلسطين ليعود إليها المسيح من جديد لكي يؤمن به بنو إسرائيل لأن للمسيح رسالتين عامة للناس كلهم وخاصة لبني إسرائيل وحدهم ـ (راجع الاختراق الصهيوني للمسيحية للقس اكرام لمعي). والعالم الغربي الصليبي لم يتوقف عن محاربة الإسلام في كل مكان ولكن الجديد في التاريخ ان يدعم الصليبيون اليهود ـ صالبي المسيح المبرئين حديثاً ـ في السيطرة على فلسطين التي قرر المؤسس أنهم لم يعودوا يستحقونها وأنها ستسلب منهم وتعطى لمن يثمر ثمرها وهم أمة محمد التي بشر بها المسيح عليهما السلام. وهكذا اكتملت الحلقة وجاء اليهود إلى القدس من جديد وإذا كان المسيح تنبأ لهم بالخروج منها فإن أتباعه

المزعومين هم الذين أعادوهم إليها وهذا لعمر الحق من عجائب التاريخ والمنطق عند الأوروبيين المغرمين بالتاريخ والمنطق وتحقق قوله تعالى عن اليهود والنصارى في حرب المسلمين ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ [المائدة: ٥١] كما لم يتحقق من قبل (راجع زوال إسرائيل حتمية قرآنية للشيخ أسعد بيوض التميمي في تفسير هذه الآية).

وهكذا جاء اليهود إلى القدس من جديد، فكيف ينظر اليهود إلى اغتصابهم للقدس. وأقول اغتصابهم لأنهم يعلمون جيداً أن الله نزعها منهم يوم نزع منهم العهد الإبراهيمي بظلمهم ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة: ١٢٤]. وكان المسيح عليه السلام قد أخبرهم بذلك. ففي ما يرويه متى عن المسيح عليه السلام (٨,١١) : «أقول لكم : سوف يأتي أناس كثيرون من المشارق والمغارب ويتكئون في حضن إبراهيم في الملكوت وأما أنتم بنو الملكوت ـ اليهود ـ فتطرحون خارجاً» ولذلك سعوا في قتل المسيح وزعموا قتله وهم يعترفون بأنه المسيح ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ [النساء: ١٥٧].

والذين استخلفوا على العهد والمسجد هم المسلمون أمة محمد ﷺ وهم يعلمون ذلك أيضاً فالنصارى في سيادتهم على القدس من زمن قسطنطين وحتى الفتح الإسلامي لم يعتبروا أنفسهم بدلاء عن بني إسرائيل ولم يقدسوا المسجد بل اعتبروه رجسه الخراب ـ راجع الفصل السابق ـ كذلك لم يعتبرهم اليهود بدلاء عنهم ذلك أن المسيح نفسه هو من بني إسرائيل وأن النصارى اعتبروا كتب اليهود كتباً لهم فهم استمرار لهم، كما أنهم مثلثون ولذلك يخرجون من دائرة

التوحيد فلا يدخلون في تحدي الدور التاريخي لليهود وهو في الأصل حمل التوحيد للناس(١٢) ولكنهم جعلوه خاصاً بهم وضنوا به على البهائم من الأميين. أما المسلمون الموحدون اتباع النبي المولود من إسماعيل والوارث للعهد الإبراهيمي والذي أسرى به إلى المسجد كما اسري بيعقوب نفسه من قبل فسيادتهم على المسجد هي تحد واضح بل هو التحدي الأساسي للكينونة الإسرائيلية التي عاشوا ويعيشون من أجلها وحافظت على وجودهم متدينين وعلمانيين إلى زمننا هذا.

يقول أندريه شوراقي اليهودي الفرنسي في كتابه تاريخ اليهودية وهو ضمن مجموعة ماذا أعلم الفرنسية وهي أكبر مجموعة مونوغرافية رصينة باللغة الفرنسية وتمثل أحد أسس الثقافة الفرنسية المعاصرة: «تتميز اليهودية بالزواج بين إله هو إله سيناء، وشعب هو إسرائيل وأرض هي الأرض المقدسة. إن تاريخ اليهودية هو تاريخ ثالوث: فالرسالة هنا لا يمكن فصلها عن الشعب الذي يتسلمها وهذا الشعب لا يمكن تصوره إلا بالعلاقة بارضه، هذا التحالف الثلاثي قهري وإجباري بقدر ما هو غير قابل للإنفصام» واذن فالعهد قهري وإجباري على الله ذاته وإذا كان الشعب قد أخطأ بحق الله فقد كان على الله ان يستلطفه ويراجعه حتى يعود إليه لا أن يستبدل به غيره وفي هذا يكمل شوراقي «ان انحرافات الشعب قدتطرده من أرضه وتبعده عن ربه، ولكنه لن يتوقف رغم ذلك عن ارتباطه المزدوج السماوي والأرضي..» والرب عز وجل لم يتقيد بهذا العهد القهري واستبدل بهم غيرهم ولذا فعليه أن يندم لعمل الشر بشعبه ولنتمعن في هذا النص الذي كتبوه بأيديهم في سفر الخروج من توراتهم المزعومة وهو

يروي غضب الله على بني إسرائيل عندما عبدوا العجل فأراد افناءهم فتضرع موسى أمام الرب الهه وقال: «لماذا يا رب يحمي غضبك على شعبك الذي أخرجته من مصر.. لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض، ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك . اذكر إبراهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثر نسلكم وأعطيه هذه الأرض إلى الأبد. فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه» (٣٢ : ١١–١٤).

إذن فاسرائيل الأبناء المدللون يريدون الله عز وجل أن يندم ويرجع عن قراره وهم يوجهون إلى الله عز وجل ذاتياً هذه الرسالة : ها قد استبدلت بنا غيرنا ولكننا بصبرنا وكيدنا وجدّنا استطعنا أن نهزم هذا البديل ونذله بين الأمم ونسترجع المعبد من جديد فاندم على فعلك واطو فكرة هذا البديل إلى الأبد لأنه بكل بساطة لا يستحق ولأننا نحن إسرائيل ابنك البكر (الخروج ٤ :٢٢).

هذا التصور تتبعه نتيجتان حتميتان: الأولى : عملهم على استمرار إبعاد هذه الأمة عن دينها لأنها به وبه فقط استحقت العهد الإبراهيمي وبه فقط تستطيع اقتلاع اليهود من القدس. جاء في البروتوكول ١٤ لحكماء صهيون. متى ولجنا مملكتنا فلا يليق أن يكون دين آخر غير ديننا المرتبط به مصيرنا من حيث كوننا الشعب المختار، والثانية: هدم الأقصى وبناء الهيكل من حيث كون هذا الهدف هو السبب الحقيقي لاحتلال القدس بل لحركة اليهود في التاريخ منذ بعثة محمد ﷺ وبناء الأقصى والذين لا يدركون ذلك لا يفهمون شيئاً عن

تاريخ اليهود وطبيعة العلاقة بين اليهودية والإسلام مما حاولنا وصفه في هذه الفصول. وبعد إعلان ضم القدس في ٦٧/٦/٢٧ عقد في القدس اجتماع لجميع حاخامي العالم وطالب هؤلاء بإعادة بناء الهيكل فكان جواب وزير الأديان الإسرائيلي د. زيرح فارهافنك «لا يجادل أحد في أن هدفنا النهائي هو إقامة الهيكل ولكن الأوان لم يحن بعد وعندما يحين الموعد لا بد من زلزال يهدم الأقصى ونبني الهيكل على أنقاضه» (عن كتاب القدس الشريف للمهندس رائف نجم).

ويقول السيد (الفرد موند) الزعيم اليهودي الانجليزي إن اليوم الذي سيعاد فيه بناء الهيكل أضحى قريباً جداً وسأكرس بقية حياتي لبناء الهيكل العظيم مكان المسجد الاقصى. وصرح موشي ديان بعد حرب حزيران ١٩٦٧ مباشرة: لقد استولينا على أورشليم ونحن في طريقنا إلى يثرب وإلى بابل. (عن كتاب حقيقة اليهود والمطامع اليهودية للشيخ محمد نمر الخطيب).

وهم يعلمون أنهم خاسرون في معركتهم مع الله وأن المسيح المنتظر لن يأتي أبداً، جاء في التلمود «إن الموعد المحدد لمجيء المسيح قد انتهى» وأيضاً «إن الأيام المقررة قد مرت منذ وقت طويل» [ظفر الله خان ـ التلمود] ولكنهم سيجرون المعركة إلى نهايتها. وقبل أن تضرب عنق حيي بن أخطب بعد الكيد الذي كاده للمسلمين تقدم فقال «أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل» ثم جلس فضربت عنقه.

فمن للمسجد ومن هم «أنصار الله» في هذه المعركة؟

إنها أمة محمد التي دخلت المسجد أول مرة فأعادت إليه اعتباره بعد أن اعتبره الروم لعنة وجعلوه مزبلة منذ زمن هيلانة أم قسطنطين في القرن الثالث الميلادي. إنها أمة محمد التي ستدخل المسجد كما دخلته أول مرة وتتبر ما علا اليهود تتبيرا. إنها أمة محمد حين ترفع راية الجهاد من جديد .

﴿ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا﴾ .

الفصل الثامن

المعنى الإنساني للعهد الإبراهيمي

بينا في الفصل السابق إنه بإسراء رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس فإن راية العهد الإبراهيمي قد نزعت من بني إسرائيل بسبب إفسادهم وانيطت بمحمد ﷺ وأمته. وأن احبار بني إسرائيل الذين كانوا قد اعلموا بهذا القضاء الرباني منذ عهد موسى عليه السلام قد رفضوا التسليم بهذا القضاء وسعوا لإلغاء مقتضاه بالكيد المتصل لأمة ﷺ لابعادها عن دور القيادة في الأرض بشقي القيادة العقيدي والسياسي وقد نجحوا في كيدهم بسبب ابتعاد هذه الأمة عن مقتضيات دينها وتمثلت قمة نجاحهم بعودتهم إلى السيطرة على بيت المقدس، وإذا كان لأمة محمد ﷺ بعد هذا الانحدار الشديد إن تعود إلى السيطرة على بيت المقدس كما هو مقتضى القضاء الوارد في سورة الإسراء فإن ذلك يقتضي أن تدرك هذه الأمة الأبعاد الحقيقية لدورها في الأرض والتي تؤهلها حين تتمكن منها إلى العودة إلى بيت المقدس. وهذا يكسب معركة القدس التي لابد أن تكون بعداً عقيدياً عالمياً لابد من ادراكه والوصول إليه لتتحقق لهذه المعركة شروطها وهذا البعد هو الاستخلاف على العهد الإبراهيمي أي الاستخلاف على الدعوة إلى دين الله في الأرض والجهاد في سبيله.

لقد هان علينا ديننا بحيث جعلناه في القرن الأخير وعند

الصالحين منا وسيلة مجرد وسيلة للوصول إلى غاياتنا الدنيوية سواء كانت إصلاح أوضاعنا الاجتماعية والسياسية أو تحرير أراضينا، ولذلك استمرأنا في سبيل هذين الهدفين التحالف مع الذين لم يجعلوا منهج الإسلام منهجاً لحياتهم واستمرأنا الاعتراف بما لا يقره الإسلام من أنظمة سعياً سرابياً وراء إقرار ما يمكن إقراره من الإسلام في المجتمع واستمرأنا محاولة إقرار حقنا في الأرض باستخدام المقولات العرقية كالقول بأن الكنعانيين سبقوا العبرانيين في سكنى فلسطين أو حتى المدينة المنورة واستمرأنا الالتجاء إلى منظمات دولية يسيرها اليهود والنصارى نطلب بذل واستخذاء حقنا في الأرض ممن تواطؤوا على اغتصابها ونحن نعلم إنها منظمات لا تقوم على دين الله ولا تقيم له وزناً بل أقيمت أصلاً لإقامة واقرار نظام عالمي يسوده اعداء الله وأعداء منهجه. وراح البعض يروج لمقولة إن هذه الأديان الثلاثة التي تفرعت تاريخياً ـ بحق أو بباطل ـ عن العهد الإبراهيمي إن هي إلا أوجه ثلاثة لنفس الحقيقة وأنها مقبولة جميعاً عند الله وسرنا أشواطاً في الترويج لهذه المقولة وقد بدأت تغزو كتب المناهج الدراسية لناشئتنا التي استودعنا الله أمانتها ونحن ما نزال نركض وراء سراب المصلحة التكتيكية ناسين اننا فقدنا استراتيجيتنا العقيدية.

إن الإسلام هو غاية هذه الأمة التي يجب أن تضحي في سبيلها بكل مصالحها الدنيوية إذا اقتضى الأمر وحين تحقق ذلك من نفسها فستأتيها قيادة البشرية، هكذا كان سبيل صحب محمد الأولين الذين فتحوا القدس وهكذا سيكون سبيل الذين سيكون لهم وعد الآخرة ليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة. إن هذه الأمة مؤتمنة على دين

الله، مؤتمنة على العهد الإبراهيمي المتمثل في صورته الأخيرة والنهائية بالرسالة المحمدية، إنها أمة الدعوة والجهاد وليست أمة الإستسلام التي لا يعنيها إلا أن تعيش داخل حدودها في سلام.

إن القضية ليست مجرد سيطرة على أرض للسكنى فيها وإنما هي قضية خلافه الرسل عليهم السلام في تعريف الناس بربهم وتعبيدهم له بمقتضى شريعته. وقد شاء الله عز وجل أن تكون الخلافة النهائية للرسل في إبراهيم وذريته ثم في محمد وأمته وهذا معنى العهد الإبراهيمي، والسؤال الأعجب هوكيف يمكن للأمناء على دين التوحيد الخالص الناصع أن يضعوه أو يقبلوا بوضعه في سلة واحدة مع دين الأسرار التثليثي ودين الاختيار العرقي المفروض على الله عنوة ـ بحكم انتصار يعقوب على الله في صراعه المزعوم معه تعالى الله علواً كبيرا ـ ثم يطلبون من الله عز وجل أن ينصرهم لاستعادة أرض لا بل لتعيين الشرطة الذين سيقومون بدوريات في حرم الأقصى ويحددون ساعات دخول السواح والمصلين وأسعار تذاكرهم وذلك لمجرد انتسالهم البيولوجي ـ المحتمل ـ من أصحاب محمد.

الوصاية على المسجد الأقصى المرضية عند الله مرتبطة بالالتزام بالعهد الإبراهيمي. لقد اغتصب المسجد الأقصى كثيرون ولكن وجودهم لم يكن مرضياً عند الله. لقد ارتضى الله عز وجل الوصاية على المسجد لداود وسليمان عليهما السلام ثم لمحمد ﷺ وأمته. واغتصبه فيما سوى ذلك كثيرون. اغتصبه اليهود بعد سليمان لأنهم أشركوا بالله وعبدوا البعل والعشتاروت وأقاموا المشارف والأوثان فدمره عليهم الكلدانيون ثم أعاد بناءه عزرا ونحميا وزر بابل بعد

العودة من السبي ولكن بناءه الثاني لم يكن مقبولاً عند الله ذلك أنهم جاؤوا بدين جديد أعطوا لأنفسهم فيه عهداً إجبارياً على الله وحذفوا فيه ذكر محمد رسول الله وملؤوه بالخرافات والأساطير البابلية وكان من تمام مؤامرتهم أن وجهوا المعبد إلى الشرق إلى بابل بعد أن كان موجهاً إلى الكعبة فقد صلى عمر رضي الله عنه يوم فتح القدس مستقبلاً الكعبة ومستدبراً الصخرة وقال أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ وقد صلى ﷺ في إسرائه بالأنبياء حيث يصلي الأنبياء * وربط دابته حيث تربط الأنبياء ووضع قدميه حيث تضع أقدامها الأنبياء فيلزم أن مسجد داود وسليمان كان موجهاً إلى الكعبة كما عاد إليه بعد فتح عمر للقدس وليس إلى الشرق كما وجهه شياطين بابل ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل ﴾

---

* أمّ رسول الله (ﷺ) بالأنبياء في الإسراء فقد روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء» وسمى منهم موسى وعيسى وإبراهيم وقال «فحانت الصلاة فأممتهم».. وربط دابته حيث تربط الأنبياء وقد رواه مسلم من حديث أنس بن مالك ووضع قدميه حيث تضع الأنبياء أقدامها رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً. وقصة عمر رضي الله عنه مع كعب الأحبار رواها أحمد في مسند عمر.

والثابت أنه عليه السلام أسري به قبل الهجرة وأنه صلى في بيت المقدس متجهاً إلى الكعبة إماماً بالأنبياء بينما لم تكن القبلة قد حولت بعد إلى مكة وإنما كانت إلى بيت المقدس وهذا يدل على أن أصل القبلة وقبلة الأنبياء هي الكعبة أول بيت وضع للناس.

[البقرة :١٠٢] ثم جدد بناءه هيرودس الأدومي المتهود وكان اليهود فخورين ببهرج البناء الجديد ولكن المسيح عليه السلام سخر منهم ومن هيكلهم وبشرهم بخرابه بحيث لا يبقى منه حجر على حجر، وهذا ما حصل، وهجر المسجد طويلاً ثم اعتبره النصارى البيزنطيون لعنة وحملوا إليه سطول الغائط من القسطنطينية إلى أن افتتحه وطهره عمر والصحابة رضوان الله عليهم، ثم اغتصبه الصليبيون وجعلوه اسطبلاً لخيولهم بعد أن غاصت فيه هذه الخيول إلى ركبها في دماء المسلمين، ثم كان هذا الاغتصاب الأخير الذي قام به اليهود تنديداً باستبدال الله بهم غيرهم واستكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

الوصاية على المسجد الأقصى المرضية عند الله عز وجل مرتبطة بالعهد الإبراهيمي فما هي تبعات هذا العهد؟ بل وماذا يعني العهد الإبراهيمي للإنسانية اليوم؟ ما هي الصورة التي يمكن أن تعطيها الأديان الثلاثة التي تفرعت ـ بحق أو بباطل ـ عن هذا العهد للإنسان الياباني مثلاً؟ وكيف أمكن تغييب دعوة التوحيد الخالص عن معظم البشرية اليوم من خلال اضطراب التوحيد في النصرانية والانغلاق العرقي لليهودية والصورة الكالحة التي يقدمها المسلمون اليوم ـ من خلال واقعهم ـ عن الإسلام وعلى من تقع مسؤولية ضلال البشرية اليوم إذا اعتبرنا ـ كما هو عند الله ـ إن كل هذا التقدم التقني لا يغني طالما كانت البشرية بعيدة عن ربها متخبطة في نظرتها إلى أهدافها بعيدة عن النور الهادي إلى دين الله عز وجل؟

لقد شاءت الإرادة الربانية أن تتوزع البشرية في الأرض من بعد

آدم وأقام الله الحجة على كل أمة بمفردها بإرسال الرسل كل إلى أمته ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله﴾ [النحل: ٣٦] ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤]، ثم شاءت إرادة الله عز وجل عندما تواصل بنو آدم بانتشارهم وزيادة عددهم أن تتحد البشرية في الرسالة وأن تنطلق هذه الرسالة من المنطقة الوسطى في الأرض والتي بورك فيها للناس وبذلك جاء دور الإمامة الإبراهيمية ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة: ١٢٤].

واختيار إبراهيم للإمامة لم يكن عشوائياً كما يظهره كتبة العهد القديم وإنما كان لأنه أتم كلمات ـ تكاليف ـ ابتلاه بهن ربه أغفلها كتبة العهد القديم عن قصد.

ابتلاه بإعلان التوحيد الخالص وتحطيم معبودات الناس من دون الله التي أضلتهم وما تزال تضلهم، فإبراهيم حطم عبادة الأصنام وصمد لامتحان الحرق بالنار [الأنبياء: ٥١-٧٠] وحطم عبادة الكواكب [الأنعام ٧٤-٨٣] وحطم عبادة الملوك [البقرة ٢٥٨] وأخيراً حطم عادة ذبح الأبناء التي كان الكهنة قد تسلطوا بها على الناس ليفرضوا سلطانهم عليهم[الصافات: ١٠٠-١١١] فلو أن إبراهيم حين أمره ربه أن يذبح ابنه تردد أو لو أنه دعا لترك هذه العادة دون أن يكون هو مستعداً لذبح ابنه إذا أمره الهه بذلك لربما قيل أنه ينهى عنها محبة لولده ولذلك فإنه لم يتردد وإنما أسلم هو وابنه لله

وافتدى الله عز وجل الغلام الذبيح لأن حكمة الله عز وجل هي في تكريم حياة ابن آدم ليقوم بعبادته جل وعلا. وكان هذا هو البلاء المبين كما جاء في سورة الصافات، واستحق إبراهيم أن يكون إماماً للناس وأن تجيء النبوة من بعده في ذريته لتهيء هذه المنطقة الوسطى في الأرض لحمل راية التوحيد إلى البشرية كلها.

وقد ارتبط العهد إلى إبراهيم ببناء البيت ولذلك جاء بعد آية العهد وهي الآية ١٢٤ من سورة البقرة قوله تعالى ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي...﴾. [البقرة: ١٢٥] في هذا البيت الأول الذي وضع للناس كافة كان العهد إلى إبراهيم وإسماعيل فأصل العهد في ذرية إبراهيم كان لإسماعيل حيث شارك أباه في الابتلاء والتسليم ثم شاركه في بناء البيت وتطهيره ورفع قواعده وفي الدعاء إلى الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة له وأن يبعث فيها رسولاً منها. وفي هذا الرسول كان منتهي العهد وغايته. ولكن إبراهيم دعا الله عز وجل دعوة قدرها الله عز وجل لحكمة يعلمها وبعد أن رزق إبراهيم بإسحاق بأن تدخل ذرية إسحق في العهد فأجابه الله عز وجل إلى ذلك(١٣) وشاء الله تعالى أن يبدأ العهد من بعد إسماعيل وإسحق بيعقوب وذريته وأن يكون في سيرة بني يعقوب من ارتفاع وهبوط نموذج اعتباري للأمة الخاتمة التي سيبعث نبيها من بني إسماعيل، ولذلك فقد أسري بيعقوب إلى المسجد الأقصى حيث نبئ بما سيكون من بنيه وقد احتمل يعقوب القضاء ورأى نموذجاً من فعال بنيه في حياته بما فعلوه بأخيهم يوسف عليه السلام وكان يعقوب ذا علم لما علمه الله

واصر قبل وفاته أن يذكر بنيه بالههم إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق - البقرة ١٣٣-.

وجاء الكتاب أولاً إلى بني إسرائيل ممثلاً في نبوة موسى عليه السلام والذي كان أصلاً على دين إبراهيم وثوى قبل نبوته في مدين يتلو على أهلها من صحف إبراهيم التي نسبت أيضاً إلى موسى لقراءته لها عليهم ﴿الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى:١٩] واستاجره حموه ثماني حجج ولم يقل القرآن ثماني سنين أو ثمانية أعوام ليدل على أن موسى كان مكلفاً بالحج وحج فعلاً استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام وفي مصر أمر بتوجيه بيوت قومه إلى القبلة ﴿واجعلوا بيوتكم قبله﴾ [يونس: ٨٧] أي إلى المسجد الحرام ثم أمر بالخروج من مصر وأمر قومه بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فتخلفوا عن واجب الجهاد فكتب عليهم التيه ثم طلبوا الجهاد مجدداً حين أخرجوا من ديارهم التي تسللوا إليها، ولأجيال قليلة وجد منهم المجاهدون والمخلصون ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا بأياتنا يوقنون﴾ [السجدة: ٢٤]، فمنّ الله عليهم وفتح بيت المقدس على داود عليه السلام وجعله نموذجاً للقبلة الإبراهيمية الأولى في مكة. يرى عبد الأحد داود الحبر الكلداني الذي أسلم بعد دراسة متعمقة للقرآن وللتراث الكتابي أن جبلي صهيون وموريا في القدس يعادلان في مدلولهما الرمزي جبلي الصفا والمروة في مكة حيث يفيد صهيون والصفا معنى الصخر والمرتفع ويفيد موريا والمروة معنى الرؤية فعند الصفا تكون المراقبة وعند المروة تكون الرؤية أي مراقبة أوامر الله وبشائره ورؤية نعيمه وإكرامه ولذلك فقد جاء في

بشائر العهد القديم والجديد الكلام عن أورشليم الجديدة التي جعلها بولص أورشليم السماوية ليبعد الناس عن إسماعيل ومكة وقد كان بولص قد اختفى مدة بين اعتناقه النصرانية ثم عودته للدعوة إلى الدين الذي ابتدعه قضاها في الجزيرة العربية كما يصرح هو بذلك وأغلب ظني أنه ذهب إلى مكة ليرى محتوى البشارة العيسوية وأنه انسلخ عنها لما علم أن بها يزول العهد من بني إسرائيل فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين. (١٤، ١٥).

وما أن مات سليمان حتى ارتد اليهود في معظمهم ثم ألفوا ديناً جديداً عندما عادوا من المنفى وحاولوا قتل عيسى عليه السلام الذي جاء مذكراً ومبشراً بمحمد ﷺ [الصف:٦] وحارب اليهود رسالة محمد ﷺ مما فصلناه سابقاً إلى أن استطاعوا السيطرة على بيت المقدس من جديد.

ولقد زور اليهود مقتضى العهد الإبراهيمي، زوروه فجعلوا مطلوب الله من إبراهيم مقابل أن يعطيه الأرض ملكاً أبدياً له ولنسله أن يقوم الذكور منهم بالاختتان في غرلتهم وكفى وليس هذا عجيباً فقد جعلوا علامته مع نوح من قبل ظهور قوس قزح! وزوروا هوية الذبيح فجعلوه إسحق وابتدعوا لإسحق ابناً آخر أسموه العيص لعب عليه يعقوب فحرمه بكوريته وبركته ليكون نموذجاً مكرراً لحرمان إسحق لأخيه إسماعيل بركة العهد وبكوريته لأن إسماعيل ابن الجارية وإسحق ابن الحرة(١٦) ثم جعلوا العهد مع يعقوب جبرياً على الله بحكم هزيمته في مباراة المصارعة الشهيرة مع يعقوب وزوروه بمحو البشارة الصريحة بمحمد وبمحاولة قتل عيسى عليه السلام الذي

ذكرهم بمحمد ثم بتشويه دعوة عيسى وإلحاقها بأديان الغموض المثرائية. ونحن اليوم نزوره بقبول وضع ديننا الدين التوحيدي الخالص صاحب الكتاب الخالد المحفوظ الذي هو كلام الله الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ضمن مجموعة الأديان المزورة التي حجبت نور الحقيقة الإبراهيمية عن البشرية فنشارك بحجب نور الحقيقة المحمدية إذ نقول للناس الذين لا يعلمون: إن هذا الدين لا يختلف عن هذه الأديان وحيث نتهافت على الإعتراف بشرعيتها ومقبوليتها عند الله وذلك بعد أن زورناه بان أعطينا للناس صورة عن نتائج تطبيق هذا الدين هي غاية في القبح بسبب قبح الحالة التي وصلنا إليها بابتعادنا عن هذا الدين ونحن ما نزال نحمل اسمه فجنينا عليه الجناية الكبرى.

ولعل سيرنا اليوم على خطى بني إسرائيل كما أنبأ به رسول الله ﷺ يجيب على سؤالين هامين يدوران في بال الكثيرين وهما: لماذا كان هذا الاهتمام ببني إسرائيل في القرآن الكريم الذي جاء للبشرية كافة بحيث قدر البعض أن ربع القرآن يتحدث عنهم وإليهم بينما لا يمثل بنو إسرائيل إلا جزءاً ضئيلاً جداً من هذه البشرية ولماذا طالما كان بنو إسرائيل بهذا الخبث والمكر والتآمر على رسالات الله لم تشأ الحكمة الربانية أن تبيدهم وتخلص الإنسانية من شرورهم؟

إن في وجود بني إسرائيل ـ تاريخاً وحاضراً ـ نموذجاً اعتبارياً وحافزاً جهادياً للأمة المسلمة، لقد جاءت امامة بني إسرائيل محدودة في المكان والزمان لتكون تجربتهم عبرة للأمة التي انيطت بها هداية البشرية كلها إلى يوم الدين وهي أمة محمد ﷺ، ولذلك فإن سورة

البقرة وهي أول سورة نزلت في المدينة بعد التمكين لأمة الإمامة الأخيرة هي سورة تحويل القبلة بعد ذكر تاريخ بني إسرائيل الذين نزعت منهم الإمامة بهذا التحويل. والأمة المسلمة مدعوة لفهم أخطاء بني إسرائيل لتجنبها[١٧] والبشرية كلها مدعوة للتأمل في الصراع النهائي بين الفرعين الأول الذي غضب الله عليه باستحقاقه وجر معه مجموعة الضالين بتحريف عقيدتهم والثاني الذي أنعم الله عليه والذي وظيفته أن يهدي البشرية إلى الصراط المستقيم حين يستقيم هو عليه ولا يتبع سبيل المغضوب عليهم أو الضالين والإشارة إلى هذا الصراع تتكرر مراراً في صلاة المسلم في سورة الفاتحة. إن معركة الخير والشر مستمرة إلى يوم الدين، ولذلك فقد ذكرت قصة آدم وإبليس في سورة البقرة قبل التوجه بالخطاب إلى بني إسرائيل كما ذكرت قصة ابني آدم في سورة المائدة متخللة الحديث عن بني إسرائيل لترمز إلى اتصال أسباب الشر والصراع بينه وبين الخير. إن الشر ينشأ في هذه الأوضاع الثلاثة من تناسي المبررات الأخلاقية للاصطفاء فابليس ظن أن مجرد خلقته من نار تجعله أفضل من آدم وابن آدم الذي قرب قرباناً خبيثاً لم يتقبل قام بقتل أخيه الذي قرب قرباناً طيباً متقبلاً بدلاً من أن يستغفر ويقرب قرباناً أطيب وبنو إسرائيل جعلوا انتسالهم من إبراهيم سبباً جبرياً على الله لاختيارهم وتفضيلهم على الأمم وأمة ذراري المسلمين اليوم تظن أن الخير فيها وأن الله سينصرها لمجرد انتسابها البيولوجي إلى محمد وصحبه.. المبررات الخلقية للاصطفاء ليست ذاتية عشوائية، ولذلك فقد كرم الله أبناء نوح الرسول المؤمن ولكن بشرط ﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلا﴾[١٨] وكرم أبناء إبراهيم ولكن بشرط ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ وكرم بني إسرائيل ولكن بشرط

الدعوة إلى الله ﴿وقولوا للناس حسناً﴾[البقرة:٨٣] والجهاد في سبيله ﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾[المائدة:٢٣] (١٩).. ومن الضروري أن نلاحظ المقابلة بين خطاب الله لداود عليه السلام ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[ص:٢٦] وخطابه لمحمد ﷺ ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾[المائدة:٤٨](٢٠).

ولقد بين الله عز وجل إن الحق لا يعلو في هذه الأرض إلا بان يحمله الناس ويدفعوا في سبيله لكي ينصرهم الله وجاء ذلك في آيتين الأولى في جهاد بني إسرائيل مع طالوت وداود في سورة البقرة[٢٥١] ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ والثانية في مبدأ الإذن بالجهاد لأمة محمد ﷺ في سورة الحج [٤٠]﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره﴾.

فوجود بني إسرائيل حافز جهاد لنا لنعود إلى حمل راية الدعوة الإبراهيمية والجهاد المحمدي في الأرض لأنهم باحتلالهم الأخير للقدس يظهرون لنا حقيقة الدرك الذي وصلنا إليه. والواقع أن اليهود ما كانوا ليستطيعوا أن ينهوا دورنا كامة في التاريخ الإنساني لولا أننا نحن

تخلينا عن هذا الدور فالأمة التي أخرجت اخراجاً بهذا الكتاب لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور فتنشر الإسلام وتحطم الوهية الطواغيت وتنقذ الإنسانية من الاستضعاف ارتضت لنفسها أن تخضع للطواغيت في سبيل استمرار وجودها كطائفة وإن فقدت دورها كأمة وقد ابتدأ ذلك منذ أن قنن فقهاء الواقع لاضفاء الشرعية على هذا الواقع من بعد وقعة الحرة فالطاعة للمتسلط اصبحت أولى من اهراق دم المسلمين في مقاومته وتقلص دور الجهاد شيئاً فشيئاً، وإذا كان التاريخ قد خلد لنا هبة المعتصم لنجدة المسلمة التي اعتدي عليها في الثغور فإن هذا ليدل اصلاً على أن حركة الفتح كانت توقفت ولم يبق إلا حماية ثغور عندما تثور نخوة المعتصم ولكن هذه النخوة لم تعد تثور من بعد وسقطت الأندلس ولم تثر نخوة معتصم ولا غيره واستمرات الأمة هذا الوضع حتى احتاجت أخيراً إلى من يذكرها بأن الدفاع عن أراضي المسلمين هو أهم فروض الأعيان ولكن الدفاع عن أراضي المسلمين لا يمكن أن يكون إلا جزءاً من الفريضة الواقعة على هذه الأمة وهي الجهاد العام في سبيل نشر هذا الدين وإقرار سلطانه وبهذا الجهاد يحميهم الله عز وجل ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة: ٦٧].

وهكذا تكتسب معركة القدس حين تقوم بعدها العقيدي وبعدها العالمي ذلك أنّ استرجاع القدس من جديد لراية الإسلام سيكون ضمن مد إسلامي ثان، مد حقيقي عقيدي وليس مجرد مد عسكري، مد يشابه المد الأول الذي فتحت فيه القدس، مد يستمر لنشر الإسلام

وسلطانه في الأرض كلها لأنه وعد الآخرة كما كانت فتوح الصحابة هي وعد الأولى وليظهر دين الله على الدين كله كما وعد بذلك في سورة الصف. فليطامن المتحمسون من تحمسهم لكل من زعم قتالاً لليهود من الطواغيت الجاثمة على صدورنا(٢١) وليعدوا لانبعاث عقيدي حقيقي لأمة قد نامت طويلاً وتراجعت كثيراً وتحتاج أن تعيد بناء كل شيء من جديد وأوله أن نعتز بمفاهيم هذا الدين ونرفض كل تبعية لسواه وكل تسوية مع غيره ونربي أبناءنا على رفض كل المساومات في سبيل أي غنيمة عاجلة تافهة تعوق عن النظرة التاريخية الشاملة وقد يحتاج الانبعاث الجديد إلى أجيال ولكنه قادم إن شاء الله ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾.

الباب الثاني

تصحيح المفاهيم في طبيعة المعركة بين المسلمين واليهود

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧-٩١] .

الفصل التاسع

قميص عثمان وصلح الحديبية

قال العماد بن كثير في البداية والنهاية ـ الجزءالسابع ص٢٢٨– :
« لما قتل عثمان بن عفان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بدمه ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين حاجفت عنه بيدها فقطعت مع بعض الكف فورد به على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس وعلق الأصابع في كم القميص وندب الناس إلى الأخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه فتباكى الناس حول المنبر وجعل القميص يرفع تارة ويوضع تارة والناس يتباكون حوله »... « وبعث علي إلى معاوية كتباً كثيرة يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس فلم يرد عليه جوابها وتكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان ثم بعث معاوية طوماراً مع قبيصة العبسي وعنوانه من معاوية إلى علي فلما فضه علي لم يجد فيه شيئاً فسأله « ما وراءك؟ » قال « ورائي أني تركت قوماً لا يرضون إلا القود وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق » فسأله علي « ممن؟ » (أي ممن يريدون القود) فأجاب « من خيط نفسك » فقال علي : « اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان » وبعث علي جرير بن عبدالله رسولاً إلى معاوية فأبى أن يبايع حتى يقتل قتلة عثمان أو يسلمهم إليه وإن لم يفعل

قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتل قتلة عثمان» وهكذا ألقى معاوية وأصحابه في روع أهل الشام أن علياً يحول بينهم وبين إقامة حد خطير من حدود الله وهو القصاص لعثمان «ولما أحس عمرو بن العاص من عسكر معاوية بصفين فتوراً في المحاربة أشار عليه بأن يبرز لهم قميص عثمان ليستأنفوا جداً جديداً في الانتقاض والمنازعة ففعل ذلك معاوية فحين وقعت أعين القوم على القميص ارتفعت ضجتهم بالبكاء وتحرك منهم الساكن فعندها قال عمرو: حرك لها حوارها تحن» والحوار ولد الناقة ـ عن ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور الثعالبي».

يقول موريس دوفيرجيه في كتابه «مدخل إلى السياسة»: «التمويه هو ستر الأهداف والدوافع الحقيقية للفعل السياسي خلف أهداف ودوافع أكثر شعبية وتتمتع بتأييد الرأي العام» وعليه فيمكن القول بأن قميص عثمان يضرب مثلاً للتمويه السياسي فخلف إظهار المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان كان يكمن عدم الاعتراف بسلطة علي وكان إبراز قميص عثمان نوعاً من المبرر الأدبي للحرب التي اشتعلت بين المسلمين وانتهت بانتقال السلطة إلى معاوية، وإذا حصل وضعف الحماس أو ضعفت الثقة بأهداف الحرب كان يبرز قميص عثمان من جديد علماً بأنه لاعلاقة له حقيقية بالأهداف الخفية للمعركة. والتمويه يعتمد دائماً على إثارة العواطف، عند العامة خصوصاً، بعيداً عن النقاش العقلاني الدقيق.

وإذا كان التمويه أسلوباً سياسياً مستخدماً منذ القدم فإن أبرع من يستخدمه كانوا ولا يزالون بنو إسرائيل الذين يخفون بدقة ومهارة الأهداف الحقيقية لسياساتهم وراء لافتات براقة خادعة، وبالنسبة

للافتة البراقة التي ترفع اليوم تحت اسم الصلح التاريخي بين العرب ودولة إسرائيل فإن هناك تمويهين رئيسيين لابد من الانتباه إليهما.

الأول: الزعم بأن إسرائيل تريد حقيقة السلام العادل والشامل المزعوم في الحدود الضيقة لفلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨ مضافاً إليها القدس والمستوطنات، ومن يصدق هذا الزعم يغفل عن حقيقة المخطط اليهودي التاريخي لإقامة المملكة اليهودية العالمية الذي أشارت إليه التوراة المحرفة (سيقوم الرب ويقيس الأرض ويجعل الأممين تحت يد إسرائيل ويسلم جميع ممتلكاتهم إلى اليهود) (ليفرح إسرائيل بخالقه وليبتهج بنو صهيون بملكهم وسيف ذي حدين في أيديهم كي ينزلوا نقمتهم بالأمم وتأديبهم بالشعوب وينفذوا فيهم الحكم المكتوب) — سفر المزامير— والتنفيذ العصري لهذا المخطط يسير اليوم في حلقته الثالثة فالحلقة الأولى بدأت في مؤتمر بال ١٨٩٧ حيث بشرت بإقامة الدولة اليهودية ووضعت المخططات وقررت وسائل التنفيذ وتمثل بروتوكولات حكماء صهيون جزءاً من محاضر اجتماعات هذا المؤتمر وقد تكلل هذا التخطيط بالنجاح وبعد نصف قرن قامت دولة إسرائيل بالفعل واعترف بها العالم الغربي سياسياً حال قيامها، وفي نصف القرن التالي مدت هذه الدولة جذورها وثبتت وجودها واتخذت الأسباب اللازمة للاعتراف بها أدبياً فعلى المستوى المسيحي تمت تبرئة اليهود من دم المسيح ثم أقيمت العلاقات بين إسرائيل والفاتيكان وأخيراً سيعترف الفاتيكان بالمسؤولية عن اضطهاد اليهود والمحرقة النازية أما على المستوى الإسلامي الرسمي فجنباً إلى جنب مع الصلح السياسي أخذت الدعوة السياسية المتصاعدة إلى تجميع الأخوة من

أتبـاع الديانات الثـلاث «الموحـدة» أو «السـمـاوية» أو «الكتـابيـة» أو «الإبراهيـميـة» معنى الاعـتراف بالديانة اليـهودية وقبولها عند الله! ثـم جـاء هذا الصلح القائم للاعـتراف بشرعـيـة التطلعات اليـهـودية على الأرض وفي غضـون ذلـك جاء الغاء الجهـاد رسـميـاً واجـهاضه عـمليـاً واستبـداله ما يسمى بالوسائل السـياسـية لاسـترجـاع الحـقـوق ونزعـت الصبغـة العقيدية للمواجهـة اليهودية الإسلاميـة واستبدلـت بها القـضية السـيـاسـيـة للشـعب الفلسطيني، كـمـا وتم تدمـيـر اقـتـصـاد الدول الإسلاميـة، بحيث أصبحت الدول الوحيـدة في العالم التي تستـهلك ولا تنتج، وتعـتـمد في غذائها وملبسهـا على غيرها ويتـهالك أبناؤها على التـوافه من منتجات التقنيـة الغربيـة واستبدلـت بالزراعة والـصناعة التـقليـدية فيهـا تصـدير المواد الخام والسيـاحـة وتجـميـع القطع وكلهـا مما يعتمد على إرادة الأجنبي وماله، والمتوقع من هذا كله أن المرحلة الثالثة من المخطط اليهودي ستكون الاستعباد الإسرائيلي الاقتصادي للمنطقة المحيطة كلهـا حتى أواسط أفريقـيا وحتى تركـيا وإيران وباكستان، وهـذا كله لا يمكـن أن يتم إلا بالاعـتراف بإسـرائيل وهـذا مـا سـوف تـستـغله إسرائيل من خلال السلام المطروح.

أما التـمويه الثـاني، والمتـفرع عن الأول طبعاً، فهو محـاولة اضفـاء شـرعيـة إسلامـيـة على الصلح مع اليـهـود، ورغـم أن التـقـيـد بتـعـاليم الإسلام لا يـدخل في اعتبار المباشرين لهـذا الصلح في قليل ولا كـثـيـر إلا أنهـم يـولون أهـمـيـة خـاصـة لاسـتـخـراج شـرعـيـة إسـلامـيـة لـه لسببين رئيسيين: الأول هو أن كـل التشكيلات السياسيـة الموجودة في المنطقـة إنما هي البديل التاريخي الممزق للدولة الإسلاميـة الأولى التي

أنشأها رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد قامت محاولات كثيرة منذ ما يقرب القرن ـ كذلك! ـ لإعطاء هذه التشكيلات أسساً شرعية غير إسلامية ولكنها باءت بالفشل وفقدت مصداقيتها عند شعوبها رغم عجز هذه الشعوب وقهرها ولذلك نجد هذه الأنظمة تستنجد بالرموز المسماه على الإسلام لإعطائها صفة إسلامية في المناسبات وكلما لزم الأمر، أما الثاني والأهم فهو أن اليهودية العالمية تظن أن المعركة بين المسلمين وبين الكفرة من بني إسرائيل قد حسمت نهائياً لمصلحتها ولذلك تريد استسلاماً تاريخياً يسجل على الإسلام ويطبع أبدياً في ثقافة وضمير الشعوب المسلمة تمهيداً لمحو الفكرة الأساسية في هذه المعركة وهي ـ من وجهة نظر الإسلام ـ سلب الخلافة من «الشعب المختار» الذي جير رسالة الدعوة التوحيدية التي أؤتمن عليها لفكرة تميزه الذاتي عن سائر الأمم وضرورة استعبادها باسم هذا الاختيار ومنح هذه الخلافة لأمة أخرى – هي أمة الاسلام– وظيفتها الجهاد الدائم لتحرير البشرية من سيطرة الطاغوت وردها إلى شريعة الله الواحدة الموحدة التي لا تميز بين أبيض وأحمر، ولذلك فإن تدمير فكرة الإسلام هذه والتي هي على طرفي نقيض مع الفكرة اليهودية يرتبط دائماً بتدمير فكرة الجهاد وباقرار مبدأ «الصلح الدائم».

وفي محاولة اضفاء الشرعية الإسلامية على التسليم النهائي للمخطط اليهودي استخدمت ثلاث طروحات ـ حتى الآن على الأقل فيما نعلم – وهي : اطروحة الاخاء الديني بين الديانات الموحدة الثلاث، والتفسير الخاطئ لآية السلم من سورة الأنفال والاسقاط المتعسف لصلح الحديبية على الصلح الحالي.

فأما قصة الديانات الموحدة وأبناء إبراهيم فقد تناولتها في الفصل التالي من هذا الكتاب.

أما آية السلم من سورة الأنفال فهي قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها، وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ [الآية: ٦١] وقد جعل التفسير الخاطئ لهذه الآية مشجباً يعلق عليه الداعون للصلح الحالي رأيهم على أنه شرعية إسلامية، وقد وردت كلمة السلم بمعنى الهدنة في كتاب الله عز وجل في موضعين يجب أن ينظر إليهما معاً وهما هذه الآية من سورة الأنفال والآية الأخرى من سورة محمد أو سورة القتال وهي قوله تعالى ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾(٢٢) [الآية: ٣٥] ولننظر إلى دقائق التفسير لهاتين الآيتين، يقول الأستاذ الشيخ الفاضل بن عاشور في تفسير التحرير والتنوير: قوله تعالى (وإن جنحوا للسلم أي إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه كما يميل الطائر الجانح وإنما لم يقل إن طلبوا السلم فاجبهم إليها للتنبيه إلى أنه لا يسعفهم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب لأنهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيداً) وفي تفسير أية سورة القتال يقول الشيخ بن عاشور (قوله تعالى ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم : الوهن هو الضعف والعجز وهو هنا مجاز في طلب الدعة ومعناه النهي عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف فالمعنى ادفعوا عن أنفسكم خواطر الوهن واجتنبوا مظاهره وأولها الدعاء إلى السلم وهو المقصود بالنهي وهو عطف خاص على عام وإنما خص بالذكر لئلا يظن أن فيه مصلحة استبقاء النفوس والعدة بالاستراحة من عدوان العدو على المسلمين).

ففي آية سورة القتال نهي صريح عن البدء بطلب الصلح أما آية سورة الأنفال ففيها الاجابة إلى الصلح إذا مال إليه العدو ميل القاصد إليه، وكلتا الآيتين إنما تتحدثان عن هدنة مؤقتة وليس صلحاً دائماً لأن الأصل أن الأمة المسلمة في حال جهاد دائم وتابيد الهدنة يمنع الجهاد وهو فرض فلا يصح ـ أي التأبيد ـ كما يقول الفقهاء.

وقبل أن نسوق الأحكام الفقهية المتعلقة بالهدنة ينبغي أن نبين أن اسقاط الأحكام الإسلامية على الواقع الذي تعيشه الشعوب المسلمة اليوم هو من الصعوبة بمكان ذلك أن الإسلام عقيدة أمة قوية مجاهدة تبذل نفسها لحمل رسالته الدعوية والتحريرية إلى البشرية بينما الشعوب الإسلامية اليوم شعوب مقهورة متخاذلة لا تملك حتى الدفاع عن وجودها كشعوب أو كافراد فضلاً عن أن تقرر مصيرها بله أن تنطلق بحمل رسالة الإسلام إلى البشرية، ولذلك فإن الأحكام الشرعية التي سنسوقها هنا قد تبدو خيالية ولكنها ستكون كذلك فقط لمن يتخيل أن وضع الأمة الإسلامية هو وضع الشعوب الإسلامية الحالية أو من يظن أن هذه الشعوب ستبقى في هذا الوضع ولن تنطلق من جديد في يوم قرب أم بعد لتحمل راية الإسلام لتحرير الإنسانية كلها من الطاغوت كله وعلى رأسه اليهودية العالمية والتي لا تتمثل فقط في إسرائيل وإنما في أذرعها الممتدة في كل مكان في الأرض اليوم.

ولكن بيان هذه الأحكام من الضرورة بمكان لكي نمنع الضمير المسلم من الاستجابة لما يراد به من الخضوع النهائي للوضع القائم ولكي تبقى شعلة العقيدة في الجمر تحت الرماد كي تستيقظ في يوم من الأيام لتحرر الإنسانية من جديد.

وكما نوهنا فإنه لا انفصال بين الأحكام الشرعية، وبين التصور الكلي لطبيعة الإسلام ودوره في الأرض وعليه فلا انفصال بين فكرة الإسلام ذاته وفكرة الجهاد القائم إلى قيام الساعة.

يقول الإمام القاضي أبو يعلي الفراء في كتابه (الأحكام السلطانية) في باب الإمارة على الجهاد :-

(ومن أحكام هذه الإمارة مصابرة الأمير قتال العدو وأن يطاول به الأمد ولا يولي عنه وفيه قوة.. وإذا كانت مصابرة القتال من حقوق الجهاد فهي لازمة حتى يظفر بخصلة من أربع خصال: أحداهن أن يسلموا، الثانية أن يظفره الله تعالى، الخصلة الثالثة أن يبذلوا مالاً على المسالمة والموادعة وهو على ضربين أحدهما أن يبذلوه لوقتهم فهذا المال غنيمة ويكون ذلك أماناً لهم في الأنكفاف به عن قتالهم في هذا الجهاد ولا يمنع من جهادهم فيما بعد والضرب الثاني أن يبذلوه في كل عام فيكون خراجاً مستمراً، الخصلة الرابعة أن يسألوا الأمان والمهادنة فيجوز ذلك عند تعذر الظفر بهم وعند أخذ المال منهم وقد هادن رسول الله ﷺ قريشاً عام الحديبية عشر سنين فإن هادنهم أكثر منها بطلت الهدنة فيما زاد، وإذا لم تدع الضرورة إلى عقد الهدنة لم تجز مهادنتهم ويجوز موادعتهم أربعة أشهر).

هذا النص الذي سقناه مختصراً يفيدنا في تقرير حقيقة هامة في التصور الإسلامي وهي أن الوضع الأصلي للأمة المسلمة هو إنها أمة محاربة لا مسالمة وأن الجهاد ماض إلى يوم القيامة.

وقد كثرت في الآونة الأخيرة عمليات التكريس والدعاية بل والتعبد لفكرة الهدنة والسلام كقيمة اجتماعية أو سياسية أو دولية،

والذين يقومون بهذه الدعاية يحاولون أن يخفوا أن الأمة المسلمة إذا لم تكن في حال دعوة وجهاد مستمرين لنشر الإسلام كعقيدة وتعميمه كنظام تحرري للإنسانية فإن الشعوب الإسلامية ستكون في حالة حرب استئصال يشنها عليها أعداؤها لإبادتها من وجه الأرض كما هو حاصل اليوم في كل بقعة على ظهر البسيطة وما يحصل في البوسنة مما يسمونه التطهير العرقي وإن هي إلا حرب دينية واضحة لكل ذي عينين، وصدق الله عز وجل ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، والذين يقومون بهذه الدعاية يخفون كذلك أن الشعوب الأوروبية – وأمريكا جزء منها – لم نضع السلاح رغم أنها الحاكمة بأمرها في العالم اليوم وأن من الواضح إنها لا تخشى على نفسها من الإبادة والاستئصال ولكنها تطور سلاحها كل يوم وتقاتل في كل بقعة في الأرض بواسطة وكلائها بل وتحاول كلما استطاعت أن ترسل شبابها ليستمروا في حمل السلاح ويعتادوه وما حرب فيتنام وأفغانستان والفولكلاند والعراق منا ببعيد .

وإذا كان الجهاد هو الأصل في وضع الأمة المسلمة، أفليس السلم في الإسلام قيمة عليا ينظر إليها على أنها كذلك؟ نعم ولكن السلم في الإسلام يعني الإسلام نفسه، وطالما كانت هناك بقعة في الأرض لا تستظل بشريعة الله يكون السلم منقوصاً ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ [الأنفال: ٣٩] فما لم يكن الدين ـ أي الخضوع ـ كله لله فهي الفتنة وهي استضعاف القوى للضعيف وهي منطلق الجهاد الإسلامي في سبيل الله والمستضعفين ﴿وما لكم لا

تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ [النساء: ٧٥].

وأما صلح الحديبية : فقد غدا الاسقاط المتعسف له على الصلح الحالي قميصاً لعثمان يرفع في وجه المعترضين كلما تم تقديم المزيد من التنازلات، وذلك رغم الاختلاف الكامل بين الوضعين في المنطلق والتفاصيل، ولزيادة في التعمية فقد طرحت مؤخراً قضية الطرف الذي نقض صلح الحديبية لتلفت النظر عن القضية الأساسية وهي أن الصلح الحالي لا يمكن مقارنته ولا بشكل من الأشكال مع صلح الحديبية وكان المقصود هو أن نؤكد أننا نحن المسلمين سنلتزم بهذا الصلح كما التزم نبينا عليه السلام بصلح الحديبية وأن النقض إن كان فسيكون من الطرف الآخر كما حصل في صلح الحديبية مع أن هذا الصلح نفسه لا يمت إلى الإسلام بقليل ولا كثير ولا تترتب عليه التزامات أدبية ما عند أي مسلم كان بناء على ذلك.

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاث مفارقات رئيسية بين صلح الحديبية وبين معاهدة الصلح الحالية :

أولاً : كان صلح الحديبية هدنة مؤقتة أو اتفاقاً على إيقاف أعمال العداء إلى حين ـ كما يقول العقاد في عبقرية محمد ـ ولم يكن صلحاً دائماً وقد رأينا أن الصلح الدائم غير جائز شرعاً، والهدنة المؤقتة قد تفيد المسلمين تكتيكياً لترتيب خططهم والتفرغ لعدو آخر مثلاً وإعطاء العدو فرصة لمراجعة نفسه ودراسة هذا الدين وتغيير موقفه منه قبل مباشرة القتال من جديد وقد توخى رسول الله ﷺ كل هذه

الأهداف فكان صلح الحديبية فتحاً من الفتوح فقد استطاع ﷺ أن يشل الاتفاق الذي كان معقوداً بين قريش ويهود خيبر لغزو المدينة وقام بغزو خيبر نفسها بعد ذلك كما وتفرغ للأعراب من حول المدينة وأرسل رسله إلى ملوك العالم يدعوهم للإسلام وأرسل بعثة مؤتة لعرب الشام الذين قتلوا رسوله فبدأ بذلك المواجهة مع الروم، ومن ناحية أخرى كان اذعان قريش للأمر الواقع واعترافها بالمسلمين لا كثوار خارجين عليها بل كند لها تدفعه بالتي هي أحسن ذا أثر على عرب الجزيرة الذين أخذوا يفكرون في الإسلام بجدية بل قد دخل في الإسلام بعض من صناديد قريش مثل خالد بن الوليد.

ثانياً : إذا كان اعتراف قريش بالمسلمين كسباً للقضية الإسلامية فلا يقال في المقابل بأن هذا الصلح الحالي يعني اعتراف اليهود بالشعب الفلسطيني وقضيته وهذا مكسب للشعب الفلسطيني ذلك أن إسرائيل هي المستفيد في الواقع من اعتراف الشعب الفلسطيني بها تاريخياً وسياسياً فانشأت علاقات سياسية مع دول كانت تنتظر انتهاء الصراع مثل الهند والصين ولذلك فالصورة مقلوبة تماماً كما وأن اعتراف إسرائيل والأمم المتحدة بالقضية الفلسطينية لا يساوي الورق الذي يكتب عليه فقضية الشعب الفلسطيني واضحة بذاتها وليست بحاجة إلى تفاسير أو مبررات أدبية ولكن القوة وحدها هي التي تعطي أى قضية مبرراتها في عالم الغاب الذي نعيشه اليوم والذي تهيمن عليه أوروبا وتمنينا بمبررات أدبية لا تقيم لها في الحقيقة وزناً وإبادة شعب البوسنة يعطي فكرة واضحة عن قيمة المبررات الأدبية لدى الغربيين اليوم كما وإن محو الإسلام من الوجود غاية متأصلة في الفكر

الغربي منذ القدم.

ثالثاً : فقد كان صلح الحديبية مع قوم ذوي دار خاصة بهم قبل قيام الدعوة الإسلامية، فلم يكن صلح الحديبية إقراراً لهم على اغتصاب بعكس دولة إسرائيل التي اقتطعت من دار الإسلام، يقول الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابة الجهاد في سبيل الله:

(لما كان اليهود في فلسطين يعلنون من آن لآخر رغبتهم في مصالحة العرب والمسلمين ومسالمتهم فمن الواجب أن ننبه إلى أن آيات السلم إذا كانت قد انطبقت عليهم في زمن النبي فإن ذلك بسبب كونهم أصحاب دار خاصة بهم قبله ويمكن أن تنطبق على كل عدو محارب بعد النبي ﷺ إذا كان له دار ودولة خاصة به منذ الأصل، أما اليهود في فلسطين فهم معتدون على دارالمسلمين مغتصبون لما احتلوه فلا ينطبق عليهم معنى الجنوح إلى السلم إذا أعلنوا أنهم يريدون الصلح مع المسلمين مع احتفاظهم بما اغتصبوه من دارهم وعلى المسلمين واجب الاستعداد بكل قوة ليقوضوا دولتهم ويطهروا البلاد من رجسهم حتى تعود إلى حظيرة السلطان الإسلامي) انتهى مختصراً.

وهكذا فلم يكن صلح الحديبية صلحاً دائماً مبنياً على ترك الجهاد ولا على الاعتراف لمغتصب بحقه في الاغتصاب ولا على التمكين له في الأرض ليبدأ منها مشروعة التاريخي، وإنما كان هدنة مؤقتة مبنية على الاستعداد والجهاد اعترفت للمسلمين بوجودهم كدولة من قبل عدوهم الأول ومكنت لهم في الأرض ليبدؤوا فيها مشروعهم التاريخي، أما بعض الشروط المجحفة التي فرضتها قريش

بحميتها الجاهلية في صلح الحديبية كرجوع المسلمين ذلك العام دون عمرة وردهم من أسلم بعد ذلك من قريش إليها فقد كانت شروطاً ظرفية بحتة ولم يكن فيها أدنى اعتراف بشرعية قريش وقد ارتدت هذه الشروط عليها فاظهرها الشرط الأول كمن لا يستحق رعاية الحرم بسبب تعصبه وطالبت هي بالغاء الشرط الثاني لما ظهر أنه لم يكن في صالحها بحكم جهاد الذين ردهم المسلمون إليها، وعليه فقد حقق صلح الحديبية كافة الأهداف التي قصد إليها فسماه الله عز وجل بالفتح المبين ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ أما الصلح اليوم مع اليهود فهو فصل في المخطط التاريخي اليهودي مدروس فيه أن يؤدي إلى اسكات صوت الجهاد إلى الأبد . . . أوليس من العجب أن يقارن الصلح الحالي بالفتح المبين؟

لمثل هذا ليبك القلب من كمد   إن كان في القلب اسلام وإيمان

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

الفصل العاشر

أبناء إبراهيم

تحت عنوان (الجملة الإبراهيمية) كتب الأستاذ فهد الريماوي في صحيفة شيحان (١٣/ ١١/ ١٩٩٣) ما نقتطف منه ما يلي مختصراً:

«فجأة وبدون مقدمات أو تداعيات قفزت إلى سوق التداول السياسي والتعامل الإعلامي تلك الجملة الإبراهيمية التي سبق للرئيس الأمريكي كارتر أن تولى صياغتها منذ مطالع الثمانينات... تمهيداً لبناء علاقة تصالحية غير متكافئة بين العرب واليهود بدعوى أنهم منحدرون جميعاً من صلب إبراهيم الخليل عليه السلام .. ناهيك عن انتزاع قضية القدس من سياقها السياسي واستحقاقها الجهادي والنظر إليها كقضية دينية بحتة يحسن حلها من خلال التشاور بين ممثلي الديانات السماوية الثلاث.. مقولة الاخاء الإبراهيمي تعني مغازلة الأصولية التوراتيه ومقاتلة الصحوة القرآنية.. العدو الصهيوني ما تلفظ قط بالجملة الإبراهيمية وترك مهام تسويقها في الأوساط العربية لعدد من أهل النخبة المحسوبة .. وعليه فستظل جهودنا ودعواتنا منصبة بالكامل على رفض الجملة الإبراهيمية وثقافة السلام وسياسة الاذعان واقتصاديات التطبيع ومخططات التنمية العربية الإسرائيلية المشتركة وسنظل على إيماننا المطلق بأن الغزو الصهيوني الحاضر لا يختلف في طبيعته ووسائل مقاومته عن الغزو الصليبي السالف ..» انتهى كلامه.

وإذا كان الأستاذ الريماوي قد نبه بكل حصافة ودقة إلى الخطورة الكامنة في هذه الجملة - الشعار من وجهة نظر سياسية في زمن التطبيع المفروض على الأمة اليوم فإنني أود الالتفات إلى المحتوى الديني أو الرصيد الشرعي من وجهة نظر إسلامية لهذه المقولة وذلك أنها ستدخل بالتدريج إلى إعلامنا وإلى ما هو أشد خطورة من ذلك أعني المناهج التعليمية لأبنائنا بما يعني ذلك من الخطورة على ضمير الأمة وعقيدتها وثقافتها على المدى البعيد.

والوجهة الشرعية طبعاً لا تؤخذ إلا من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وهما المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك فاقول والله المستعان.

حينما قام رسول ﷺ بدعوته ادعى كل من الفرقاء الثلاثة الذين واجهتهم الدعوة في مكة والمدينة وجزيرة العرب وهم قريش واليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم باعتبارها مرجعية دينهم وقد جاء الرد القرآني محدداً ودقيقاً وقاطعاً.

قريش ترجع بأصولها إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل عليهما السلام وتعتز بهذه النسبة وتستمد منها القوامة على البيت وعمارة المسجد الحرام، وجاء الرد القرآني حاسماً: ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [التوبة: ١٩] ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [الأنعام: ١٦١]. فالعبرة بالدين الموحد الخالص وليس في عمارة ولا سقاية ولا نسب، ﴿ وإذ قال إبراهيم رب

اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني.. ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، إذن من تبعني فقط هو مني وأما من لم يتبعني في الدين الموحد الخالص فليس مني ولو كان من صلبي بل ولو كان أبي ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ [التوبة: ١١٤].

أهل الكتاب ـ من يهود ونصارى ـ يرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحق عليهما السلام ويعتزون بهذه النسبة ومن ثم يدعون احتكار الهداية واحتكار الجنة ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ [البقرة: ١٣٥] ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ [البقرة: ١١١]، وكذلك جاء الرد القرآني حاسماً:

كانت سورة البقرة أول ما نزل من القرآن الكريم في المدينة المنورة ـ بعد الهجرة ـ وكانت أول مواجهة بين الدعوة الإسلامية وبين اليهود كجماعة منظمة بعد الهجرة كذلك ولذلك فقد تناولت الآيات (٤٠-١١٧) من هذه السورة قضية دعوة اليهود إلى الإسلام والرد على أباطيلهم ولا يمكننا هنا نقل هذا السياق القرآني العظيم بكامله فنجتزئ بما يلي:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ [الآية: ٤٠].

بنو إسرائيل يتمسكون بعهد من طرف واحد زاعمين إنهم أبناء الله وأحباؤه لسبب ذاتي ويزعمون أنهم شعب الميثاق ـ راجع أصول الصهيونية في الدين اليهودي للدكتور إسماعيل الفاروقي ـ ويقولون

في كتابهم المحرف ـ سفر التكوين ٩: ١-٦: «ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لكي يفي بالكلام الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب الهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة» أي غليظ جاحد ـ باعترافهم ـ ولكن الله عز وجل تعالى أن يكرم أو يحابى أحداً على أحد لذاته. إنما هو عهد عام مع الناس جميعاً ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[الحجرات: ١٣]. ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ [يس: ٦٠]. ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [الأعراف: ٣٦].

وقد جدد الله هذا العهد مع إبراهيم عليه السلام وذريته تكريماً له وهذا التجديد هو من إضافة الخاص إلى العام وقد فصله السياق لاحقاً. ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة: ١٢٤] فالعهد لإبراهيم كان لأنه أتم التكاليف أو الكلمات وهي بالاجمال مقتضيات الدين التوحيدي الخالص والعهد لذريته أن تكون قدوة للناس في الدين إذا هي التزمت به بالطبع ولذلك فالعهد لا ينال الظالمين فهو

عهد خلقي وليس عهداً ذاتياً كما جعله الكذبة ممن حرفوا التوراة ثم صدقوا ما كتبوا! ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ [آل عمران: ٢٤]. فهل وفى بنو إسرائيل بعهدهم؟ ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم .. ﴾ ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه .. ﴾ [المائدة: ١٢–١٣] هذا هو الميثاق وشرطه ثم كان نقضهم له وكانت لعنة الله عليهم.

ويمضي السياق القرآني العظيم من سورة البقرة فيقص على بني إسرائيل كيف كان كفرهم منذ خروجهم مع نبيهم الأكبر موسى عليه السلام من مصر باتخاذهم العجل وطلب رؤية الله جهرة إلى تغيير القول الذي قيل لهم إلى طلب البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل إلى رفع الطور فوقهم إلى اعتدائهم في السبت إلى قتلهم النفس ومشاكستهم لموسى عليه السلام في ذبح البقرة، ـ حقاً إنهم شعب غليظ الرقبة ـ ثم تحريفهم لكتابهم وادعائهم القربى الذاتية إلى الله ثم التلاعب على التعاليم المنزلة إليهم وتكذيب الأنبياء وقتلهم وأخيراً إلى الكفر بمحمد ﷺ وقد كانوا يستفتحون على مشركي العرب. ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ [الآية: ٨٩] روى ابن إسحق عن الأنصار أن اليهود في المدينة كانوا قبل البعثة يهددونهم بأنه «قد تقارب زمان نبي يبعث

الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم» فلما بعث رسول الله ﷺ كفروا به.

وهنا لا بد من وقفة هامة لبيان التصور الإسلامي لطبيعة الرسالات وتتاليها، لقد جاءت رسل الله جميعاً بالدين التوحيدي الخالص وهو الإسلام لله اى الخضوع لشريعته كما كانت تبينها الرسل والتي كانت تعدل ـ أى الأحكام الشرعية وليس قواعد الإيمان الثابتة ـ طبقاً لإرادة الله وحكمته من رسول إلى آخر ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ [المائدة: ٤٨].

وعندما كان قوم رسول ينحرفون عن الرسالة أو تشاء إرادة الله تعديل شريعة سابقة كان يرسل عز وجل رسولاً جديداً وكان مطلوباً من أتباع الرسول السابق متابعة الرسول الجديد وقد أخذ ميثاق ذلك من الرسل أنفسهم ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [آل عمران: ٨١–٨٢] والفاسقون هنا أي الكافرون كما هو مستخدم كثيراً في لغة القرآن الكريم لأن أصل الفسق في اللغة هو الخروج قال الإمام الشيخ محمد عبده في تفسير المنار لهذه الآية: الفاسقون أي الخارجون عن ميثاق الله الناقضون لعهده وليسوا من دين الحق في شيء، ولذلك كان من لم يؤمن بعيسى من بني إسرائيل كافراً ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا

ظاهرين﴾ [الصف: ١٤] ، وكذلك فكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من يهودي أو نصراني يكون كافراً ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ [البقرة: ٨٩] وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ولولاه لما كان هناك معنى لتتالي الرسالات قال ﷺ «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي احد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم في كتاب الإيمان عن أبي هريرة، قال النووي في المنهاج في شرح هذا الحديث : (فيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ والمقصود ممن هو موجود في زمنه ﷺ وبعده إلى يوم القيامة وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهاً على من سواهما لأن لهم كتاب فغيرهم ممن لا كتاب له أولى)، ولذلك فلا توجد اليوم رسالات سماوية وإنما هي رسالة واحدة ولذلك قال ﷺ «لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»* (راجع الحديث بتمامه مع تفسيره في كتابي مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام) والميثاق المأخوذ من النبيين مأخوذ من أتباعهم من باب أولى بمقتضى أتباعهم لهم وقد أجمع المفسرون على ذلك.

ونرجع إلى سياق سورة البقرة ونتنقل مباشرة إلى الكلام عن إبراهيم عليه السلام ودعائه وهو يبني الكعبة ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ الآية ١٢٨ فالذرية التي تنتمي إلى

---

* رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى والبزار عن أبي الدرداء وعبدالله بن ثابت وعبدالله بن شداد وجابر بن عبدالله وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

إبراهيم يجب أن تكون ذرية مسلمة فهل كان أهل الكتاب منذ البعثة المحمدية ـ بل وقبل ذلك ـ وإلى يومنا مسلمين؟ ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [الآية ١٣٥] فيدمغهم بالشرك ثم يرد عليهم ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ [الآية: ١٤٠] والله العليم قرر ﴿ بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وتتلو ذلك آيات تحويل القبلة مشعرة بانتهاء دور بني إسرائيل انتهاءً كاملاً تلك النهاية التي كان عيسى عليه السلام قد بشر بها من قبل وهو آخر أنبياء بني إسرائيل وقد جاءهم بما لا تهوى أنفسهم ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ [الصف: ٦] ولعل مما لم يطاله التحريف فيما روي عن عيسى عليه السلام ما جاء في رواية متى «الحجر الذي رذله البناؤون هو الذي صار رأس الزاوية – حيث كان اليهود يسمون أبناء إسماعيل بأبناء الجارية هاجر وأما هم فأبناء الحرة سارة – لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله سينزع منكم ويعطي لأمة تثمر ثمرة، من وقع على هذا الحجر تهشم ومن وقع عليه هذا الحجر هشمه»، وفي موضع آخر عن هذا الملكوت «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات» ثم «أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فأي شيء يصلحه؟ إنه لا يصلح بعد ذلك إلا لأن يطرح في خارج الدار فيدوسه الناس» وكذلك عن يحيى عليه السلام في رواية متى «لا يخطر لكم أن تعللوا النفس فتقولوا أن أبانا هو إبراهيم فإني أقول لكم إن الله قادر على أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم. ها هي ذي الفأس على أصول الشجر فكل شجرة لا تثمر ثمراً طيباً تقطع وتلقى في النار» وصدق الله العظيم ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم

يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الجمعة :٥].

وفي الرد على النصارى تنزل الشطر الأول من سورة آل عمران إلى الآية ١٢٠. وذلك بمناسبة القدوم الأول لوفد نجران إلى المدينة المنورة وكان ذلك ما بين غزوتي بدر وأحد حيث كانت شوكة المسلمين قد قويت بحيث سمع بها أهل نجران من النصارى وتشير إلى ذلك الآية ١٣ من السورة ويرى الشامغاني أن ذلك كان باتفاق تحالفي بين الدول النصرانية لمحاربة الإسلام (راجع المباهلة لماسينيون والسيرة النبوية لدروزة) وإن أحداث هذا اللقاء لتشكل نموذجاً للحوار بين الأديان كما يراه الإسلام. قال الواحدي في أسباب النزول : قدم وفد نجران وكانوا ستين راكباً ومنهم ثلاثة يؤول إليهم أمرهم العاقب والسيد والأسقف فدخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين صلى العصر فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ فقال : دعوهم فصلوا إلى المشرق فكلم السيد والعاقب رسول الله ﷺ فقال لهما: أسلما فقالا قد أسلمنا قبلك فقال كذبتما منعكما من الإسلام سجودكما للصليب وقولكما اتخذ الله ولداً وأكلكما الخنزير وشربكما الخمر قالا إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه فقال ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه قالوا بلى فقال ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء قالوا بلى.. حتى قال فكيف يكون هذا كما زعمتم فنزلت الآيات ودعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة وهي قوله تعالى ﴿فمن حاجك فيه﴾ أي في عيسى ﴿من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا

وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [الآية: ٦١]. فاستأذنوه إلى غد لينظروا في أمرهم فلما خلوا إلى بعضهم قال لهم العاقب «يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ـ أي المسيح ـ ولقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم وانه للاستئصال منكم إن فعلتم» فاتوا رسول الله فقالوا يا ابا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا فوادعهم وعاهدهم.

وهذه الأحداث نموذجية في طبيعة الحوار والتعايش بين الأديان كما يراها الإسلام فالرسول ﷺ سمح لهم بالصلاة في مسجده متجهين إلى الشرق وهو يعلم انهم يسجدون للصليب ويدعون لله ولداً، ولكنه لم يميع في بيان حقيقة الفروق بين الدينين ولم يسمح لهما بالإدعاء بانهما مسلمان حيث أرادا منذ البداية أن يقولا: لا تزاود علينا في الإسلام فنحن مسلمان مثلك بل قبلك فمن التضليل الذي يحاوله البعض أن يوهم ان التعايش لا يتم بين دينين إلا بتقديم تنازلات مبدئية أو اعتراف بمقبولية الدين الآخر عند الله.

اللقاء والحوار يجب الا يمنع من قول الحقيقة وإلا فلن تكون له أية قيمة إيجابية، ويجب الاعتياد على تقبل الآخر كما هو دون إرادة إجباره أو حمله على تبني موقف مخالف لموقفه الأصلي وهذا يختلف عن إرادة دعوة الآخر إلى موقفه وليس بينهما تعارض فالدعوة اختيارية والحمل إجباري، التفهم العقلي قد يتبعه اعتناق مبدأ الآخر ولكن ذلك ليس ضرورياً. الضروري هو ان يمهد هذا التفهم للتعايش دون ضغط أو إكراه أو تمييز مادي أو معنوي اي تقبل وجود الآخر المخالف بما

هو مخالف أي أن لا يقتضي ذلك الطلب منه أن يغير نظريته في سبيل تقبل وجوده وذلك على نفس المستوى الذي لا يجوز فيه التخلي أو التنازل عن جزء من العقيدة في سبيل ارضاء الآخر.

وهنا أيضاً لا يمكن نقل السياق كاملاً وإن كنا ندعو القارئ للرجوع إليه وإلى سياق سورة البقرة المذكورة سابقاً ونجتزئ بهذه الآيات: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ [١٩-٢٠] ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [٣١]، ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [٥٩] ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ [٦٥] ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ [٦٧]، ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ [٩٠] قال الشيخ بن عاشور في التحرير والتنوير: هم اليهود والنصارى فاليهود بعد أن آمنوا بموسى كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفراً حين كفروا بمحمد والنصارى آمنوا بعيسى ثم كفروا حين ألهوه وعبدوه ثم ازدادوا كفراً حين كفروا بمحمد.

وهكذا تنقطع صلة اليهود والنصارى بإبراهيم بسبب شركهم، لقد كان إبراهيم موحداً أما الديانات النصرانية واليهودية فليستا

كذلك كما كانتا زمن الرسالة المحمدية وكما هما اليوم، وعلى هذا تقوم شهادة القرآن وشهادة الواقع. فأما شهادة القرآن فقد استعرضنا جزءاً منها وأما شهادة الواقع فتكفي مراجعة العهد القديم للتأكد من ذلك عند اليهود الذي جعلوا يهوه إلههم الخاص الذي سينتقم لهم من آلهة القبائل الأخرى[٢٣] يقول الأستاذ الفاروقي في كتابه السالف: (إن من السخف بمكان أن نقر ادعاء اليهود بأنهم موحدون. إن إله اليهود ـ كما تعرضه التوراة ـ في جميع هذه العصور ليس إلهاً توحيدياً، لقد كان وثناً أو أوثاناً وضعتها زوجة يعقوب تحت فستانها [التكوين ٣١]. وأصبح جنياً تصارع مع يعقوب وتغلب عليه يعقوب(التكوين ٣٢) ثم الهاً قبلياً ثم الأله الذي لا يعمل إلا لليهود.. والصهيونية هي حركة هذا الإله في التاريخ) وقد عبد اليهود آلهة أخرى وحتى أوائل القرن العشرين الحالي مثل الآلهة الأنثى سابات والعشتروت والكروبيم والشخنية والماترونيت وليليت وارجع إن شئت مزيداً إلى سهيل ديب في كتابه عن التوراة ص٤٦-٥٢ وأسعد السحمراني في كتابه من اليهودية إلى الصهيونية ص١٠٣-١١٢.

أما بالنسبة للديانة النصرانية فيقول القسيس دافيد بنجامين الكلداني الذي أسلم وتسمى بعبد الأحد داود في كتابه (محمد في الكتاب المقدس) ص٤٤: (الاعتقاد بأن الله هو الأب والله هو الابن والله هو الروح القدس كفر صريح بوحدانية الله واعتراف متهور بثلاثة كائنات ناقصة وهي سواء كانت منفصلة أو متحدة لا يمكن أن تكون الهاً حقيقياً. والرياضيات كعلم موضوعي تعلمنا ان الوحدة ليست أكثر من واحد ولا أقل وبعبارة أخرى لا يمكن أن يكون الواحد مساوياً

لثلاثة لأن الواحد هو ثلث الثلاثة، وكذلك فإن الواحد لا يساوي الثلث وبالعكس فإن الثلاثة لا تساوي واحداً كما إنه لا يمكن للثلث أن يساوي الوحدة).

وإذا كان اليهود والنصارى - بسبب شركهم - لا ينتمون إلى إبراهيم عليه السلام عقيدياً فإنهم كذلك ليسوا من صلبه بيولوجياً فأما اليهود فإن ٩٢٪ من اليهود اليوم يتحدرون تاريخياً من سلالة الخزر ولا يمكن إثبات الاتصال السلالي للباقين بإبراهيم سواء كانوا من الاشكناز الجرمان أو السفارد اللاتين - راجع كتاب بنيامن فريدمان: يهود اليوم ليسوا يهوداً - أما النصارى فلا يدعون لانفسهم نسباً بيولوجياً بإبراهيم فبينما كانت دعوة المسيح عليه السلام إلى بني إسرائيل خاصة ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ [الصف: ٦]، وفي رواية متى عن المسيح (لا تسلكوا طريقاً إلى الوثنيين ولا تدخلوا مدينة للسامريين بل اذهبوا إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل)، وسع بولص الدعوة بعد أن طور مفاهيمها على هواه لتكون للأمم وقام الصراع بين حواريي المسيح واتباعهم وهم من سموا في التاريخ باليهود النصارى وبين الحزب البولصي إلى أن انتهى رسمياً بانتصار الحزب البولصي بعد أكثر من ثلاثة قرون من الميلاد، ويقول المعلق على الطبعة الكاثوليكية للعهد الجديد وجه يسوع الأثنى عشر إلى الخراف الضالة من آل إسرائيل في أيام إعلانه للبشارة ولكنه أرسلهم بعد قيامته إلى جميع الأمم.

على أن النسب البيولوجي لإبراهيم، وللأنبياء عامة، لو ثبت فإنه لا قيمة له عند الله من وجهة نظر إسلامية لأن الأصل في الإسلام هو

المسؤولية الفردية ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ [الطور: ٢١] ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الزمر: ٧] ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ [البقرة: ٤٥] وقد أورد العلماء طائفة صالحة من الأحاديث في تفسير هذه الآيات نسوق منها ما يلي: قال ﷺ «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي، وروى البزار في مسنده من حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ (كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون عند الله تعالى من الجعلان) وروى البخاري ومسلم عنه ﷺ «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا اغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا اغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا اغني عنك من الله شيئاً». ورغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخلف بعده ـ لحكمة ربانية واضحة ـ أبناء ذكوراً ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ [الأحزاب: ٤٠] فقد حدد تحديداً واضحاً ليقطع كل لبس من هم أولياؤه ففي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سر يقول: «إن آل أبي (فلان) ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين» وقد تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه الذي أنجبه حين علم أنه عدو لله ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ [التوبة: ١١٤] وأمر الله عز وجل نوحاً عليه السلام بالبراءة من ابنه الذي من صلبه عندما كفر وأعلمه أنه بكفره ليس من أهله ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ [هود: ٤٦](٢٤).

وأذن فمن هم أبناء إبراهيم؟ إن أبناء إبراهيم هم حملة التوحيد الخالص المجاهدون ومنذ رسالة محمد ﷺ فأبناء إبراهيم هم المسلمون أتباع محمد ﷺ، والنص القرآني في ذلك واضح قاطع: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾ [آل عمران ٦٨] ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ [الحج: ٧٨] وليس بعد قول القرآن قول.

إنها الرسالة الخاتمة التي لا يقبل الله من أحد بعدها سواها، وإنه الإسلام الواحد الذي لا ثاني معه وإنه لا ديناً سماوياً إلا الإسلام ولا ديناً موحداً إلا الإسلام ولا ديناً إبراهيمياً إلا الإسلام ولا إسلام بعد بعثة محمد ﷺ إلا كما جاء به محمد ﷺ * ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ [الكهف: ٢٩].

---

* حتى لو رأى البعض رأياً واجتهاداً غير ذلك على اعتبار أصل ما كان أهل الكتاب عليه أو ما يدعونه اليوم لأنفسهم وهم غير ذلك كما أوردنا من أدلة الكتاب والسنة .

الفصل الحادي عشر
الشيخ والحاخام

في حفل التوقيع على المعاهدة الأردنية الإسرائيلية والذي عقد في وادي عربة قام الشيخ المسلم فتلا آيات من القرآن الكريم ثم قام الحاخام اليهودي فقرأ مزموراً من العهد القديم الذي كتبه اليهود، وحيث أن لكل مقام مقالاً فلننظر كيف أريد للآيات أن تتناسق مع المقام وكيف تناسق مزمور الحاخام معه.

تلا الشيخ أولاً الآية ٢٠٨ من سورة البقرة ثم انتقل فتلا الآيتين ٢٨٥ و٢٨٦ من سورة البقرة نفسها، أما الحاخام فقرأ المزمور ١٢١ من سفر المزامير المنسوب إلى داود عليه السلام.

الآية ٢٠٨ من سورة البقرة هي قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ وباعتبار المقام الذي تليت فيه الآية يفترض السامع أن السلم هنا يعني المسالمة أو المصالحة مع العدو وهذا تفسير خاطئ للآية فالسلم هنا يعني الإسلام وعلى ذلك اتفق المفسرون وتكفي مراجعة الآية ومراجعة سياقها لتبين ذلك، فكلمة كافة تعني جملة لأنها تكف الأجزاء عن التفرق فالمقصود ادخلوا في الإسلام دخولاً تاماً في شرائعه كلها وفي جميع أحوالكم ظاهراً وباطناً أي بكليتكم لأن التخلف عن شيء من ذلك هو اتباع خطوات الشيطان وهو الزلل الذي جاء في الآية

التي تليها.

ولعل هذا هو السبب في اقتطاع الشيخ للآية من سياقها وقراءتها بمفردها، فسياق الآيات يبدأ بذكر بعض الناس الذين تختلف أقوالهم عن أفعالهم (الآيات ٢٠٤-٢٠٦) ثم تشيد الآية ٢٠٧ بمن يبيع نفسه كاملة ابتغاء مرضاة الله وتنتقل آية ٢٠٨ موضوعنا إلى دعوة المسلمين ليكونوا من هذا النوع: ادخلوا في السلم كافة أي بكليتكم وتحذرهم من الانفصام وهو اتباع الشيطان والزلل المذكور في الآية ٢٠٩.

ولنسمع السياق كاملاً وليس مقسماً عضين ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ، يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾.

وهكذا يصبح المعنى واضحاً ولا مجال فيه للاجتهاد وقد اتفق المفسرون على أن السلم هنا هو الإسلام ويمكن مراجعة ابن كثير وابن جزي والواحدي والزمخشري والسيوطي والبيضاوي والطبري شيخ المفسرين، وقد أورد الطبري في مناسبة نزول هذه الآية عن عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في طائفة من اليهود أسلموا ولكنهم أرادوا الاستمرار في تعظيم السبت وكرهوا لحم الإبل وألبانها على اعتبار أن

ذلك من شريعة موسى وقالوا إنا نقوى على هذا وهذا وقالوا للنبي ﷺ إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها، فنزلت الآية بالدخول في السلم كافة أي في شريعة محمد ﷺ الخاتمة للشرائع والناسخة لها المهيمنة عليها.

وهذا التقرير يفيدنا فيما يتعلق بالآيتين الآخريتين اللتين تلاهما الشيخ المسلم وهما: ٢٨٥ و٢٨٦ من سورة البقرة فمناسبتهما للمقام هي ـ فيما يبدو ـ في قوله تعالى ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ وذلك في المقولة التي يروج لها في الوقت الحاضر وسيروج لها كثيراً في المستقبل وهي إن هذه الأديان المسماة سماوية أو موحدة وهي اليهودية والنصرانية والإسلام هي ثلاثة وجوه لمحتوى واحد وكلها مقبولة عند الله ولكن نبي الأولى موسى ونبي الثانية عيسى ونبي الثالثة محمد وبهذا لا نفرق بين الرسل وهذا أيضاً تفسير خاطئ فأولاً الديانتان اليهودية والنصرانية كما هما اليوم ليستا هما الديانتين اللتين جاء بهما موسى وعيسى وقد أثبتت أبحاث نقد الكتاب المقدس التي قام بها أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنفسهم أن الكتب المقدسة في كلتا الديانتين لا تصل بتفاصيلها ولا بمجملها لا إلى موسى ولا إلى عيسى عليهما السلام وإن نسبت إليهما (راجع موريس بوكاي في الكتب المقدسة في ضوء العلم الحديث) وثانياً فإن أياً من هاتين الديانتين لم تعد اليوم ديانة موحدة (راجع الديانة اليهودية لإسرائيل شاحاك اليهودي واسطورة تجسد الإله في السيد المسيح للبروفيسور جون هوك استاذ اللاهوت في جامعة برمنجهام لبيان هذه الحقيقة) وثالثاً فإن البشارة بمحمد وردت في كل من التوراة والإنجيل الأصليين [الفتح:

٢٩] فمن كان حقاً من اتباع موسى أو عيسى فعليه بالضرورة أن يتبع محمداً ﷺ، ورابعاً فمن المعلوم من الدين بالضرورة إنه لا يقبل بعد البعثة المحمدية التدين إلى الله بغير الشريعة المحمدية وقد اتفق العلماء على أن من ينكر ذلك خارج عن الملة، وقد فصلت الأدلة الشرعية ـ رغم أن هذا الموضوع يجب أن يكون بدهياً ـ في فصل أبناء إبراهيم من هذا الكتاب.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ : جميع الأنبياء عندنا صادقون مهديون وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض حتى نسخ الجميع بشريعة محمد، وهذه خاصية محمد ورفع درجته، قال تعالى : ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ [الإسراء: ٥٥] وقال : ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾ البقرة ٢٥٣ قال الزمخشري لقد أوتي محمد من الفضل المنيف على سائر ما أوتيه الأنبياء ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات.

أما الحاخام فقد قرأ المزمور ١٢١ من سفر المزامير وهو من أناشيد المراقي أو ترانيم المصاعد وهذا نصه:

«أرفع عيني إلى الجبال، من أين تاتي نصرتي؟

نصرتي من عند الرب ، صانع السموات والأرض

فهو لن يترك قدمك تزل وهو الذي يرعاك فلا ينام

إن حافظ إسرائيل لن ينام ولن ينعس

الرب حافظ لك الرب ظل لك عن يمينك
فلا الشمس تؤذيك في النهار ولا القمر في الليل
الرب يحميك من كل سوء ويحفظ نفسك
ويرعاك في غدوك وجيئتك الآن وإلى الأبد »

هذا المزمور واحد من مجموعة مزامير يرددها الحجيج في صعودهم إلى جبل صهيون في العيد يقول شارحو الكتاب المقدس (جور وزملاؤه) : هذا المزمور يعبر عن الثقة بنصر الله وهذه الثقة يقابلها التطمين المؤكد بأن الحافظ لا ينام.

وهكذا فالحاخام في هذا الموقف إن هو إلا في حج وصعود إلى أورشليم وهذه خطوة على الطريق وهو واثق من استمرارية الطريق إلى نهايته حسبما تدل مجريات الأمور.

طبعاً لا حاجة للتعليق حول مناسبة المقال للمقام ويبقى سؤال وهو : لماذا لم يرافق الرئيس الأمريكي قسيس ليقرأ علينا من الإنجيل في هذا المقام؟ والجواب هو أن الصهيونية قد اخترقت المسيحية الانجيلية في أمريكا التي أصبحت تتبنى مقولاتها وهكذا فقد عبر الحاخام عن لسانهم جميعاً بما قرأه من مزمور المصاعد.

بقي أن نشير بكلمة إلى تناسق المكان الذي تم فيه التوقيع على الاتفاقية مع هذه ا لمناسبة التاريخية، لقد تم التوقيع في وادي عربة أي على سفح جبل الأموريين وقد جاء ذكر الكلام المزعوم الذي كلم به موسى الشعب على هذا الجبل في سفر التثنية المنسوب إلى موسى (١، ٢١) ولاحظ الأرقام (١، ٢١) والعلاقة مع المزمور ١٢١ واليهود

من أكثر الناس استخداماً للتورية بالعلاقات الرقمية.

ويبتدئ السفر هكذا: « هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل في عبر الأردن في البرية في الصحراء... بعدما ضرب سيحون ملك الأموريين المقيم بحشبون ـ مادبا اليوم ـ وعوجا ملك باشان المقيم بعشتاروت في ادرعي ـ درعا اليوم ـ في عبر الأردن في أرض مؤاب شرع موسى في شرح هذه الشريعة فقال: قد تكلم ربنا في حوريب ـ جبل سيناء ـ وقال لنا: حسبكم المقام بهذا الجبل فتحولوا وادخلوا جبل الأموريين ـ وهو مرتفع في النقب يطل على وادي عربة والأموريون كانوا يسكنون شرقي الأردن وغربه ـ وكل ما يليه من القفر والجبل والسهل وساحل البحر أرض الكنعانيين ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات » ثم يتابع السفر على لسان موسى ـ على حد زعمهم ـ (ثم ارتحلنا من حوريب وسلكنا كل تلك البرية على طريق جبل الأموريين فقلت لكم قد وافيتم جبل الأموريين الذين وهب الرب إلهنا لنا) ثم يجيء الوعد المطلوب وهو : (انظر ـ أي يا شعب إسرائيل ـ قد جعل الرب الهك الأرض بين يديك فاصعد واستحوذ عليها كما قال لك الرب إله آبائك لا تخف ولا تذعر) ـ الترجمة الكاثوليكية ـ أما الترجمة البرتستانتية ـ فهي (اصعد تملك كما حكمك الرب إله آبائك لا تخف ولا ترتعب).

إذن هذا هو بيت القصيد : من هنا، من وادي عربة الأرض أمامك حتى لبنان وحتى النهر الكبير نهر الفرات اصعد تملك استحوذ لا تخف ولا تذعر لا ترتعب إنه وعد الإله لآبائك.

في اليوبيل الخمسيني الأول لمؤتمر بال قامت إسرائيل وفي اليوبيل

الثاني اعترف بها جيرانها من العرب وفي اليوبيل الثالث ـ وربما قبل ذلك ـ هل ننتظر وقوفهم أمام النهر الكبير – نهر الفرات – حسبما يزعمون ويعملون أم أن يوم صحوة الأمة كما وعد الحق سبحانه قريب.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ [البقرة: ٤٢].

﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ [المائدة: ٥١].

الفصل الثاني عشر
داود وجالوت
مكة والقدس

تمهيـــد

نشأت الدول القومية في أوروبا كأطر سياسية. قصد بها بحكم الظروف الاقتصادية والفكرية المستجدة التخلص من ربقة السلطة الكنسية وأنظمة الحكم المقدسة التابعة لها.

وفي أواخر القرن التاسع عشر نقل الفكر القومي إلى بلاد المسلمين ليقوم بتجزئة هذه البلاد والتمكين للمستعمر فيها، وقد أدى دوره وخاصة فيما يتعلق باثارة النعرة العرقية بين العرب والأتراك. وعلى أشلاء الدولة العثمانية أنشأ المستعمر دويلات إقليمية وقام بتغذية النعرات الإقليمية بعد أن وطد للنعرات العرقية. وظن البعض أننا بصبغ خطابنا عن قضايانا المصيرية بالصبغة العرقية أو الاقليمية نكتسب تعاطف الغرب، وقد نسي هؤلاء ـ في خضم هزيمتنا الروحية ـ أن معركتنا مع الغرب هي معركة سيادة عقيدية وسياسية على الأرض كلها ننطلق فيها من أسلامنا، وينطلق فيها الغرب من تراثه اليهودي النصراني الحاقد على الرسالة الأخيرة التي سادت العالم ألفاً من السنين. والغرب رغم انتصاره الحالي الساحق لا ينسى حقيقة المعركة والتهديد الذي يمثله الإسلام على سيادته الطاغوتيه حين يرجع

المسلمون إلى حقيقة محتوى معركتهم وهو ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ [النساء: ٧٥] وهو الشعار الذي اقض مضاجع الغرب والمغرورين به في أوائل الثمانينات من هذا القرن، ولذلك فالغرب لا ينخدع إذا رفعنا شعارات عرقية أو اقليمية لقضايانا ولا يتعاطف معنا فضلاً عن أن الغرب نفسه قد مج العرقية والاقليمية وبدأ يتجه إلى التوحد الثقافي والاقتصادي بعد أن أدت العرقيات والاقليميات دورها هناك ثم تسببت في حروب طاحنة كانت آخرها الحربين العالميتين ولكننا نحن نخسر كثيراً حين نرفع الرايات الإقليمية والعرقية لأننا نخسر دورنا وذكرنا في الأرض ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ [الأنبياء: ١٠] فالإسلام أولاً نزهنا عن العرقية فقد قال ﷺ (ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية)* وقال ﷺ : « دعوها فإنها منتنة »** والإسلام ثانياً أقام لنا أهدافاً عليا رفيعة إنسانية عقيدية يجب أن نربي عليها أجيالنا ونرفعهم إلى مستواها ولا نعلمهم الخضوع لمثل دنيا دنية حتى ولو كان من قبل الانحناء للعاصفة حتى تمر لأن الانحناء المستمر يولد التشوة والقزامة والانكسار.

وهذا الفصل يتكون من مقالين كتبتهما في الرد على اسقاط الفكر العرقي على قضايا مواجهتنا مع اليهود وقد نشرا في حينه في

---

* رواه أبو داود عن جبير بن مطعم

** رواه الترمذي والبخاري في كتاب التفسير عن جابر بن عبدالله.

صحيفة السبيل وقد حذفت هنا اسم الكاتبين اللذين وجه الرد إليهما ولكنني أبقيت المقالين كما هما أي بصيغة الرد لبيان طرق التفكير المردود عليها وقد أصبحت منتشرة مع الأسف والله المستعان.

داود وجالوت

أريد أن أعلق على منحى فكري منتشر ويبدو واضحاً من خلال كلمات البعض مثل قولهم إن الأردن هو «الأرض التي دافع عنها الأردنيون القدامى أيام بني إسرائيل بقيادة النبي موسى عليه السلام مثلما دافع الأردنيون عن الكرامة وأم قيس»... وقولهم إن اليهود «يريدون أن يتتبعوا خطى القوم الذين قتلوا جالوت الملك العموني الأردني..».

إنني أريد أن أصوب إسلامياً طريقة تفكيرنا نحو اليهود اليوم واعتبار بعض كاتبينا أن يهود اليوم يتتبعون خطى موسى وداود بل وطريقة تفكيرنا نحو أنفسنا في مواجهة اليهود اليوم كما لو كنا نتتبع خطى ميشع وجالوت الذين كانوا أعداء موسى وداود.

هذا القياس ذو الوجهة العرقية يقودنا إلى نتائج إسلامية ماساوية ذلك إنه يضعنا في صف الكافرين ـ جالوت وأمثاله ـ في مواجهة المؤمنين ـ داود وموسى عليهما السلام ـ وإذا كان البعض يحاول أن يخفف من حدة هذه النتيجة المنطقية بقوله: «مع فارق الإيمان بين القائدين واتفاق الغزو والاحتلال بين المعتدين» فإنه بهذا يزيد الأمر سوءاً لأنه يجعل موسى وداود من المحتلين المعتدين.

وهذا النمط الفكري نتيجة طبيعية للعرقية الفكرية التي لفظتها

أوروبا ولكنها غزتنا منذ نهايات القرن التاسع عشر وأدت ـ ضمن عوامل أخرى ـ إلى تمزيق المسلمين واستضعافهم في الأرض، وقبل أن أبين وجهة النظر الإسلامية في ماهية الانتماء لا اغفل من توضيح أن هذا القياس غير صحيح حتى من الناحية العرقية فالعبرانيون والكنعانيون والعمونيون واليبوسيون هم جميعاً من العروق السامية[٢٥] التي ترجع إلى جزيرة العرب فهم جميعاً عرب بهذا المعنى ويهود اليوم ليسوا في غالبيتهم من الساميين كما أن منطقة شبه المتوسط شهدت هجرات وموجات غزو وإبادة شعوب كاملة لا تدع مجالاً للقول بوجود دماء نقية بالمفهوم العرقي ولذلك فلا مجال للقول بأن يهود اليوم هم ورثة العبرانيين ولا أن الأردنيين أو العرب عموماً هم ورثة العمونيين أو اليبوسيين ولا حتى الفلسطينيين التاريخيين الذين يظن بأنهم جاؤوا عبر البحر من جزيرة كريت رغم أن معطيات التاريخ القديم ليست قاطعة ولا تبنى عليها أية نتائج واقعية وخاصة لا تبنى عليها حقوق سياسية. ولقد طالما تلقف بعض كتابنا بعض هذه المعطيات وبنوا عليها حقاً تاريخياً لنا في فلسطين لأن الكنعانيين سبقوا العبرانيين في سكنى هذه البلاد ولم يلتفت إلى هؤلاء الكتاب أحد لأن هذا المنطق لا يلتفت إليه أحد اليوم ولكننا بمثل هذا التفكير لفتنا أنفسنا وشعوبنا عن حقيقة الصراع بحيث بعد أن كانت قضية فلسطين هي قضية الإسلام اصبحت قضية المسلمين ثم قضية العرب ثم قضية الفلسطينيين ثم قضية دولة ما للفلسطينيين ثم حكم ذاتي ثم إسكان ومحميات سكنية لا أكثر ولا أقل مثل قضية الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية.

وإذا كان البعض قد ظن قديماً أنا باستعارتنا لطريقة تفكير الغرب ـ التي تخلى عنها ـ وإسقاطها على قضيتنا نكسب تأييد الغرب فقد كان هذا البعض مخطئاً وقد ثبت خطؤه بعد قرن كامل من المحاولة ولذا فما أحرانا أن نعود إلى منطلقاتنا الإسلامية الأصيلة ليس لنستخدم الإسلام في خدمة أهدافنا كما نفعل اليوم ولكن لنعود حقاً إلى أسلامنا الذي به كنا وبدونه لم نعد! ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ [الأنبياء: ١٠].

في الإسلام أن الأرض لله يورثها من يشاء من عبادة الصالحين ليقيموا عليها مجتمع الإسلام ودولة الإسلام ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، هذه الآية في القرآن رواية عن الزبور هي قمة التعبير عن هذه الحقيقة الدائمة في كتب الله وسنته، والأرض هنا بالمعنى العام هي كل أرض لله عز وجل، والمعنى الخاص الأرض المباركة أرض الإسراء والمعراج.. وبذلك فقد كانت دولة داود عليه السلام دولة إسلامية لأنها الوعد الذي تخلف القوم مع موسى عن تحقيقه بسبب عصيانهم. ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا يا موسى إنا لن ندخلها

أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تاس على القوم الفاسقين﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦]، وعندما حارب بنو إسرائيل مع ملكهم طالوت ثم مع ملكهم ونبيهم داود عليه السلام كانوا يحاربون بإذن الله وأمره وقتل جالوت بإذن الله وأمره. راجع سورة البقرة الأيات ٢٤٦-٢٥١ وخاتمتها ﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة...﴾ وأقام سليمان مسجده بإذن الله وأمره وعندما فسق بنو إسرائيل وأفسدوا من بعد سليمان طردوا من الأرض بقضاء الله الذي انذروا به في الكتاب ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ...﴾ [الإسراء:٤-٨] وعندما قام أصحاب محمد ﷺ بفتح الأرض المقدسة كان ذلك لأنهم كانوا عباد الله الصالحين وليس لأنهم يريدون إرجاعها للعرب أو اليبوسيين أو الكنعانيين وقد وطأت أقدام الصحابة مغرب البرابرة وتخوم قسطنطينية الروم ونهاوند الفرس وكابل الأفغان وكل هؤلاء أصبحوا مسلمين بحمد الله ولم يعرف العرب ـ كعرق ـ هذه البلاد من قبل، وورث أتباع محمد مسجد سليمان لأنهم هم خلفاء سليمان ولأن محمد ﷺ أمّ بسليمان نفسه ضمن الأنبياء في هذا المسجد المبارك.

واليوم فإن بني إسرائيل في إفسادهم الثاني ليسوا خلفاء داود بل إن داود نفسه هو لعنهم وجاء هذا اللعن في القرآن الكريم ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم﴾ [المائدة: ٧٨] كما أنهم ليسوا خلفاء موسى بل جاء في الكتاب الذي أنزل

على موسى أن المسلمين اتباع موسى وداود الحقيقيين وهم أتباع محمد سيخرجون بني إسرائيل من المسجد مجدداً ﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ [الإسراء:٧].

ولكن إذا كان اليهود اليوم ليسوا أتباع موسى وداود، رغم مزاعمهم فهل نحن حقاً أتباع محمد حسب مزاعمنا؟ هل صفت نفوسنا وطرائق تفكيرنا وسلوكنا لتندمج وتنصهر في بوتقة منهج القرآن ومعانيه وأهدافه لنكون القوم الذين سيدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة، فلنراجع انفسنا ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨].

مكة والقدس

كنت قد كتبت في المقال السابق (داود أم جالوت) رداً على إسقاط الفكر العرقي على قضية فلسطين حيث يستنبط «البعض» أن حقنا في فلسطين يعود إلى أن الكنعانيين واليبوسيين سبقوا العبرانيين في سكنى فلسطين حسب معطيات التاريخ القديم و«اعترافات» الكتب اليهودية التي أسماها «القديس» بولص الطرسوسي (العهد القديم) ويسميها اليهود (تناخ) أي توراة ـ نبيين ـ كتابات.

وقد كان الرد المذكور يستند إلى أساسين :

الأول : إن الجذور العرقية لهذه الأقوام جميعاً ترجع حسب معطيات الدراسات اللغوية إلى جزيرة العرب وما يسمى بالعروق السامية وانه لا توجد اليوم أدلة قاطعة على أن الفلسطينيين الحاليين

هم أبناء الكنعانيين ولا أن اليهود الحاليين هم أبناء العبرانيين وأن استنباط حق سياسي من المعطيات الظنية للتاريخ القديم لم يعد ـ إن كان في يوم من الأيام ـ معتبراً اليوم أولاً بسبب سقوط النظريات العرقية وثانياً بسبب اتضاح الصفة الظنية لنتائج أبحاث التاريخ القديم.

الثاني: وهذا الرد يختص بالذين يحملون راية الفكر الإسلامي وهو أن مسلمي بني إسرائيل وهم الأنبياء وأتباعهم الذين استقاموا على الدين ينتمون إلينا وننتمي إليهم بينما كفار بني إسرائيل لعنهم أنبياء بني إسرائيل أنفسهم وبالمثل فالقوم الذين حاربهم أنبياء بني إسرائيل سواء سماهم التاريخ القديم كنعانيين أو يبوسيين أو غيرهم إنما حاربهم الأنبياء بأمر الله وإذنه لأنهم كانوا كافرين فاسقين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام وقال الله عنهم ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال: ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت ﴾ [البقرة: ٢٥١] فالحرب كانت عقيدية ومن هذا المنطلق فإننا نتضامن قلبياً بدون أدنى شك مع موسى وداود وليس مع أعداء الأنبياء ورسالاتهم كما إننا اليوم ـ إذا كنا مسلمين ـ نمثل الورثة الحقيقيين لداود وسليمان وللمسجد الذي بنياه لأن داود لعن كفار بني إسرائيل كما لعنهم آخر أنبيائهم عيسى عليه السلام والذي كانت مهمته التبشير بانتقال راية الإمامة في أبناء إبراهيم من بني إسرائيل إلى النبي الإسماعيلي الخاتم أحمد ﷺ ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ﴾ [المائدة: ٧٨].

والذي اقتضاني اليوم العودة إلى هذا الموضوع جملة قرأتها لأحد

الأخوة الأفاضل جاء فيها: «القدس موجودة قبل وجود مكة المكرمة وقبل بناء الكعبة المشرفة بيت الله الحرام..» ويستند في ذلك إلى «اعترافات» اليهود في التناخ وإلى معطيات التاريخ القديم. وهذه الجملة ترينا ما يمكن أن يصل إليه تفكيرنا في النهاية إذا رضينا السير خطوة واحدة في مناهج الفكر التي لا يرتضيها الإسلام وخاصة المناهج العرقية التي أصبحت شائعة بحكم تبني الأنظمة المهيمنة لها منذ ما يزيد عن نصف القرن. ومع تقديري للأخ الفاضل : إلا أن الحق أحق أن يتبع ولننظر إلى هذه الجملة حسب المعطيات الإسلامية.

يقول الله عز وجل ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ [آل عمران: ٩٦] وعليه فالقدس بما هي قدس أى مكان عبادة وتقديس أي بما هي بيت وضع للناس بهدف العبادة لا ريب قد وضعت بعد البيت الحرام لأن البيت الحرام أول بيت وضع للناس. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال (المسجد الحرام) قلت ثم أي قال: (المسجد الأقصى) قلت كم بينهما قال (أربعون عاماً) وقد اختلف المفسرون فيمن بناهما فقيل إبراهيم وقيل آدم وقيل الملائكة أما القول الأخير فيرجع على الأرجح إلى أن الملائكة أو أن الوحي بيّن لإبراهيم أو لآدم مكانهما، وقد جاء صريحاً في القرآن الكريم أن إبراهيم رفع القواعد من البيت وإسماعيل [البقرة: ١٢٧] وجاء في سورة الحج ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ [الاية: ٢٦] قال الجلال المحلي في الجلالين بوأنا أى بيّنا وقال ابن فارس في مقاييس اللغة : الباء والواو والهمزة أصلان أحدهما الرجوع إلى الشيء والآخر تساوي الشيئين،

قلت وتساوي الشيئين يعود إلى رجوع كل منهما إلى الآخر في القيمة ولذلك فإن بوأنا تدل على الرجوع إلى البيان أو إعادة البيان فكأن مكان البيت كان معروفاً ثم أعيد بيانه لإبراهيم (س) فالبيت الحرام أول بيت وضع للناس فناسب ان يكون بناه أول الناس ويكون آدم عليه السلام قد بنى البيتين كلاهما ـ والله أعلم ـ ومكة هي أم القرى فيكون منها قد انطلق الإنسان وانتشر وتوزع في الأرض وعندما شاء الله عز وجل أن تجيء الرسالة الخاتمة ـ بعد أن أصبح في إمكان البشرية بعد أن توزعت أن تتصل ببعضها مجدداً ـ أخرج هذه الرسالة الخاتمة مجدداً من أم القرى لأن البشرية كلها هي ما حول أم القرى ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ [الشورى:٧ والأنعام:٩٢]، وقد أثبت الأستاذ حسين كمال الدين رئيس قسم الهندسة بجامعتي أسيوط والرياض أن مكة المكرمة هي مركز لدائرة تمر بأطراف جميع القارات أى ان الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة توزيعاً منتظماً حول مكة المكرمة وعليه تعتبر مكة المكرمة مركزاً للأرض اليابسة (مجلة البحوث الإسلامية) وعليه يكون إبراهيم (س) قد بنى البيت على أسس آدم(س) ويكون سليمان قد بنى المسجد على أسس آدم أو إبراهيم أو كليهما عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وربما عنى الأخ الفاضل أن القدس كمدينة أو قرية وجدت قبل مكة كمدينة أو قرية بغض النظر عن القيمة الدينية لهما، وهذا القول مردود أيضاً ذلك أن القدس من حيث هي قدس مرتبطة بالمسجد ولو كان في ذلك المكان مساكن أو أبنية غير تعبدية قبل المسجد لما كان اسمه القدس ورغم ذلك فإن ما يقوله اليهود في التناخ هو أن ملك

تلك القرية كان صالحاً وقام بمباركة إبراهيم جاء في سفر التكوين (١٨ــ٢٠) (وأخرج ملكيصادق ملك شليم خبزاً وخمراً لأنه كان كاهناً للرب العلي وباركه وقال مبارك إبرام من الله العلي مالك السموات والأرض) أي أنه كان صالحاً مسلماً وعليه اقترن اسم القرية بالعبادة منذ البداية إن صحت الرواية التناخية (وعن ملكيصادق والاجتهادات في معناه واسماء القدس القديمة راجع سهيل ديب في التوراة بين الوثنية والتوحيد صفحة ٢٩) ولا توجد دراسات اركيولوجية حول عمر مكة المكرمة مقارناً بعمر القدس الأركيولوجي على أننا لا نسلم لا بمعطيات التناخ ولا بمعطيات التاريخ القديم ومن باب أولى لا نبني على أي منهما عقيدة دينية ولا نستخرج منهما نظرية سياسية ذلك أن تصورنا السياسي كمسلمين إنما ينشأ عن عقيدتنا الدينية ولا يمكننا إذا كنا صادقين مع أنفسنا كمسلمين أن نستخرج حججاً سياسية من مصادر لا نؤمن بمعطياتها.

فأما التناخ أو التراث الديني اليهودي المكتوب ـ بالمغايرة مع التلمود والذي هو التراث الشفهي المزعوم وإن كان قد كتب فيما بعد ـ فإن القرآن الكريم قد دلل على تزييفه بما لا يدع مجالاً للشك وقد فصلنا ذلك في الفصل الثالث من هذا الكتاب فلا حاجة للعودة إليه كما وأن الدراسات النقدية الحديثة التي قام بها الباحثون اليهود والنصارى أثبتت كذلك تزييفه ويجدر بكل باحث مسلم أن يرجع إلى دراسات الغربيين حول كتبهم «المقدسة» لينظر الجهود الضخمة والنتائج التي توصل إليها هؤلاء في تحري مصادر كتبهم «المقدسة» والغايات الدفينة للأحبار والكهنة الذين كتبوها افتراء على الله

وخاصة في هذه الأيام التي يزعم فيها عندنا بأن هذه الكتب من عند الله وأن اتباعها على دين صحيح وأنهم أبناء إبراهيم مما سيفرض على أبنائنا تعلمه في المدارس في القريب العاجل.

وأما بالنسبة لمعطيات التاريخ القديم المستندة إلى الآثار والأحافير فإنها في أحسن أحوالها تفيد الظن ولا تفيد القطع حتماً ولا بحال من الأحوال ولنأخذ مثالاً على ذلك ما يسمى بنظرية الخطأ الجسيم فقد أعيد النظر في التاريخ المصري القديم وصحح التقويم العائد له مرات متعددة بما يزيد عن ألف وخمسمائة إلى ألفي عام وأعيد النظر في تاريخ الخروج وقرب وأبعد فترات لا تقل عن مئتي إلى ثلاثمائة سنة وأعيد حساب تاريخ اخناتون فكان من سنة ٨٣٧ إلى ٨١٠ ق.م بعد أن كان من ١٣٧٥ إلى ١٣٥٨ ق.م (راجع كتاب سهيل ديب السابق ص٧٤) هذا بالنسبة للطرق الأركيولوجية التقليدية المعتمدة على التاريخ المقارن للأحداث في الوثائق المختلفة أما بالنسبة للطرق المسماة علمية في تقدير الزمن فتقول موسوعة كوليار الأمريكية ـ مادة اركيولوجي ـ عن أقرب هذه الطرق للصحة وهي التاريخ بالكربون المشع: «طريقة التاريخ بالكربون المشع معتبرة نظرياً في الفيزياء النووية وأعطت نتائج مدهشة، ولكن لسوء الحظ فإن بعض تواريخ الكربون المشع بدت في تناقض مع تواريخ مقبولة جيداً من ناحية اركيولوجية، ويظهر الآن أن التلوث الجيوكيماوي الطبيعي لبعض العينات قد يكون أكثر بكثير مما كان مفترضاً في البداية وعليه فإن كان التاريخ بالكربون المشع لعينة ما في تعارض واضح مع التاريخ الأركيولوجي فيمكن التشكك في التاريخ الكربوني». هذا كله طبعاً إذا افترضنا صدق أهل

الكتاب في تقديم نتائج بحوثهم إلينا وهو مالا يمكن أن يُعول عليه.

والخلاصة انه في هذا الزمن الذي سيصار فيه إلى التلاعب بالمفاهيم الأساسية للدين فإنه حري بنا أن يكون مرجعنا القرآن الكريم والثابت الصحيح من السنة النبوية وأن نتعب أنفسنا بعد ذلك في غربلة ما يضخ في عقولنا من مقولات أهل الكتاب السابقين واللاحقين وإنها لأمانة في أعناقنا...

وإذا اتضح أن الهدف الإسلامي من معركة القدس ـ والتي لابد ستكون ـ ليس هو إعادة يبوس لليبوسيين وأن هدفاً كهذا لم يكن ليخطر في بال عمر ولا صلاح الدين، فما هو الهدف الإسلامي لمعركة القدس إذن؟ إنه إظهار دين الله على الدين كله... وسيادة شريعة الإسلام على القدس رمز لظهور هذا الدين على الدين كله وقد أردك ذلك الصليبيون عندما أسسوا مملكة القدس اللاتينية وأدركه الحلفاء حين أخرجوا العثمانيين ويدركه اليوم اليهود ومن وراءهم من أهل الكتاب جميعاً .. وقد أمّ محمد ﷺ بالأنبياء في إسرائه إلى المسجد الأقصى ثم افتتحه المسلمون قريباً بعد ذلك. واليوم وقد ردت الكرة لبني إسرائيل على أتباع محمد ﷺ فإن معركتنا هي ﴿ليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا﴾ [الإسراء: ٧].

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ [التوبة: ٣٣ والفتح ٢٨ والصف٩].

خاتمة

خصائص الرسالة المحمدية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [محمد: ١-٢].

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي

ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٨-٢٩] .

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦] .

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] .

تمهيد

لقد ختمت الكتاب بهذا الفصل عن خصائص الرسالة المحمدية، ذلك أن أعداء الإسلام في هذه المرحلة من معركتهم معه يستخدمون شعارات مضللة يخاطبون فيها عاطفة عوام المسلمين ويخفون وراءها أهدافهم الخبيثة مثل شعار أبناء إبراهيم أو شعار الإسلام دين السلم والسلام ويريدون لهذه الشعارات بما هي خطاب للعاطفة دون العقل أن تصبح جزءاً من الثقافة اليومية للمسلم ولذلك كان لابد للمسلم من تذكيره بمعنى إسلامه وبالفارق الواضح الذي لا يمكن تغييبه أبداً بين هذه الأديان وبين الإسلام وهو عدم اعتراف هذه الأديان برسالة محمد ﷺ وشمول هذه الرسالة للبشرية. إنهم يستطيعون أن يوهموا المسلمين أن هذه الأديان موحدة رغم إنها ليست كما هي اليوم كذلك، ويستطيعون أن يوهموهم أنها سمويه أو إبراهيمية رغم أنها كما هي اليوم ليست كذلك(٢٦) ولكنهم لن يستطيعوا أن يخفوا حقيقة أن هذه الأديان لا تعترف بمحمد ﷺ نبياً رسولاً إلى البشر كافة رغم أنهم قد يظهرون للتضليل إعجابهم به أو اعترافهم بأنه نبي للعرب. ومن نقطة الضعف الواضحة هذه في خطابهم يمكننا أن نبدأ.

ولنسأل المسلم العادي لماذا كانت الرسالة المحمدية بمعنى ما هو الهدف الذي لأجله بعث الله محمداً ﷺرسولاً إلى الناس؟ سيبدو هذا السؤال للوهلة الأولى بسيطاً وساذجاً وتبدو الإجابة عليه من تحصيل الحاصل عند هذا المسلم العادي. وفي الواقع فهو من الأسئلة

التي تبدو إجابتها من البداهة بحيث يستغرب طرحها. ويؤدي تغييب هذا السؤال إلى أن تنتقل الإجابة عنه في حس المسلم العادي من دائرة العقل إلى دائرة العاطفة تماماً كما سيستغرب المسلم العادي أن يسأل لماذا هو مسلم؟ ذلك ان الإجابة على هذا السؤال قد انتقلت منذ زمن بعيد من دائرة العقل إلى دائرة العاطفة ولذلك فإن الحس العام للمسلم سيتلقى بالقبول أية إجابة عقلانية أو تبدو كذلك على هذا السؤال إذا خلت من عنصر الاستفزاز ومن باب أولى إذا حملت بعض التقدير للإسلام لأنه سيضيفها إلى قناعته العاطفية وفي الواقع فإنها لن تحتل للوهلة الأولى إلا مكاناً ضئيلاً في تكوينه الثقافي ولكن إذا تكررت هذه الإجابة شبه العقلانية مراراً وبوسائل شتى مثل الكتب الدراسية والصحف والإذاعة والتلفاز وخطب الجمعة فإنها ستصبح تدريجياً جزءاً من تكوينه الثقافي. ولذلك فقد حصل في مرحلة مبكرة من مراحل هزيمتنا الثقافية المعاصرة والتي طالت أن قال المستشرقون وتلامذتهم من المحليين بعدهم أن الإسلام جاء والعرب يئدون البنات ويغزو بعضهم بعضاً ويعبدون الحجارة وجاء محمد ﷺ فمنع وأد البنات وغزوات القبائل وعبادة الحجارة فكانت هذه رسالته واليوم طبعاً لا أحد يئد البنات أو يغزو بالقبيلة أو يعبد الحجارة فلم يعد للإسلام دور أكبر من دور الأديان الأخرى إن بقي للدين دور على الاطلاق. وربما ظن القائمون على هذه الحملة أنها قد أدت دورها ولكن هذا الظن صحيح نسبياً فقط لأنها لم تلمس إلا جزءاً يسيراً من المسلمين ذلك أن غالبية المسلمين اليوم وبسبب التجهيل المنظم الذي يمارس ضدهم يعيشون بعواطفهم لا بعقولهم وهكذا ارتد السحر على الساحر ولم تدخل هذه المقولة إلا في القاموس الفكري لجزء من

المثقفين أما المسلم العادي العاطفي الذي يمثل الأغلبية فقد استمر في إيمانه العاطفي التقليدي الذي يقوم على المتابعة العاطفية من باب الولاء المطلق لشخص الرسول الكريم ﷺ وما يمثله من قيم ومعتقدات سواء أدرك هذه القيم بشكل كامل أم لا وبشكل سليم أم خاطئ ولكن مع اعتبار أساسي لا نقاش فيه لأنه دخل في صميم التكوين العاطفي للمسلم وهو أن محمداً ﷺ هو خاتم النبيين وأعظمهم وسيدهم وأنهم جميعاً بشروا به ويدينون له بالولاء. وقد شكل هذا التصور الذي خالط قلوب المسلمين والتحم بها بشكل لا انفكاك منه السد الحاجز الأساسي أمام هجمات أعداء الإسلام. ولذلك فالهجمة التالية على هذا الدين مركزة على هذا «التميز» للرسول ﷺ وآخذه منحى أكثر اعتماداً على العاطفية وبشكل شعارات سهلة التعبير قريبة المعنى ولتكن شعارات مأخوذة من الإسلام نفسه ـ مع تحريف معناها ـ بحيث لا يستطيع أحد أن يزاود عليها أو ينتقدها والأفضل ابقاؤها كشعارات مجملة دون الدخول في التفاصيل لكيلا تتضح الأهداف الخفية وراءها. وحتى لو قام بعضهم بتحديدها وبيان خطورة ما وراءها فإن الاعتماد أساساً إنما هو عليها باعتبارها شعارات تغزو العاطفة دون أن تمر بالعقل خاصة عند مجموعة بشرية تعيش في الأساس على عواطفها وقد أهمل تدريبها عقلياً بشكل متعمد لفترة طويلة من الزمن بحيث تعطل الجهاز العقلي عندها إلى درجة كبيرة. وهذه في الحقيقة «ضربة معلم» فالذي يحاول تشريح شعار تبدو البراءة ظاهرة عليه ليخرج منه الأهداف الخبيثة سيتهم بسوء النية عند من يعيشون بعواطفهم. ولذلك فإن من يهمهم أمر الإسلام سيطلب منهم جهد كبير لمقاومة الشعارات العاطفية لأن هذا يتطلب إعادة

تشغيل الجهاز العقلاني الذي بذلت عقود طويلة من الزمن لأجل تعطيله وإلا فإنهم سيتهمون بالتكلف والمزاودة وعلى كل حال فتبليغ الإسلام أمانة في عنق من يؤمن به مهما كانت الصعوبات ولعل محاولة إعادة تشغيل الجهاز العقلاني عند المسلمين هي أول الطريق الحقيقي لاستصلاحهم وإذا كان كثير من جهود دعاة الإسلام قد انصب سابقاً على توكيد المعاني العاطفية للارتباط بالإسلام إلا ان محاولة تفهيم الإسلام بشكل كلي يجمع العقل مع العاطفة في كلية الكينونة الإنسانية ستكون ولا شك أجدى وأقرب إلى العلاج السببي من العلاج العرضي.

ولذلك جاءت هذه الخاتمة عن خصائص الرسالة المحمدية أي مقومات تميزها وقد استخرجت هذه الخصائص من المواضع التي ذكر فيها اسمه المبارك ﷺ في القرآن الكريم ليكون الخطاب بها بمنهج القرآن الكريم الذي يخاطب الإنسان بكليته عقلاً وروحاً وأبرزت فيها مقتضى كونه ﷺ خاتم النبيين وهو كونه النبي الذي لا يقبل الله بعد ثبوت رسالته التدين إلى الله بأية رسالة أخرى.

لقد برزت في الآونة الأخيرة جنباً إلى جنب وتبريراً للتطبيع مع دولة إسرائيل دعوات ماكرة لوضع الإسلام مع اليهودية والنصرانية في سلة واحدة سموها الديانات السموية أو الإبراهيمية أو الموحدة أو الإلهية. وإذا كان الهدف الأساسي من ذلك هو التمهيد لتقبل المسلمين لوجود دولة اليهود على أرض الإسلام وسيادة اليهود على القدس فإن الهدف العقيدي الأبعد هو أن يزرع في نفوس المسلمين ان الدين الإسلامي كما جاء به محمد ﷺ هو واحد من ثلاثة أنواع أو

متغيرات من الإيمان مقبولة عند الله وينفذ الواحد منها إلى الآخر مثل الأواني المستطرقة. ويحاول بعضهم أن يغرر بالمسلمين بالقول بانه لا يمكن التعايش بين الأديان إلا بالاعتراف بان النصارى واليهود هم على الحق مثل المسلمين وذلك إما بتجاهل الفروق أو محوها أو بالقول بتعدد الحق، وهذا باطل أولاً لأن التعايش هو قبول المخالف بما هو مخالف وليس بالاعتراف بانه على الحق وقد كانت هذه وما تزال خاصية للمسلمين أما غير المسلمين فقد أبادوا مخالفيهم وخاصة من المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ولا يزالون وأمثلة الأندلس قديماً والبوسنة حديثاً تثبت بالواقع التاريخي ما نقول وثانياً لأن تجاهل الفروق غير ممكن ولا يمكن جمع دين التثليث أو دين الرب القومي مع دين التوحيد الذي يسوّي بين الناس جميعاً وثالثاً لأن فكرة تعدد الحق أو الجوانب المختلفة لرؤية الحق مرفوضة إسلامياً لأن هذا الدين إنما جاء ليبين الحق ويبطل باطل أهل الكتاب، وهي مرفوضة أيضاً عند غير المسلمين الذين لا يعترفون بالإسلام لأنهم لو اعترفوا به لوجب عليهم أن يسلموا لأن الله لا يقبل إلا الإسلام، ولكنها فكره يراد فرضها على المسلمين فإذا كانت هذه الديانات هي وجوه مختلفة للإيمان الواحد الحق فلم يعد هناك معنى للدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل الله وفقدت معركة القدس معناها العقيدي، وأصبحت قضية فلسطين هي حقوق أفراد في ممتلكات يمكن تسويتها مادياً وهذا هو الحل المطروح وهكذا تكتمل الحلقة وتضيع الأرض كما ضاع الدين.

خصائص الرسالة المحمدية

ذكر رسول الله ﷺ في القرآن الكريم أربع مرات باسمه محمد وذلك قوله تعالى ﴿وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم﴾ في سورة محمد وقوله ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾في سورة آل عمران وقوله ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ في سورة الأحزاب وقوله ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ في سورة الفتح كما ذكر ﷺ باسم أحمد في قوله تعالى في سورة الصف على لسان السيد المسيح ﴿ومبشراً برسول ياتي من بعدي اسمه احمد﴾. وأخيراً جاء ذكر الحمد متعلقاً برسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا﴾.

والتأمل في هذه الأيات ومواقفها من سورها يدلنا على خصائص وأبعاد الرسالة المحمدية وسنكتفي هنا بالإشارات دون التفصيل.

سورة محمد دعوة للجهاد بالقتال والأنفاق واسم السورة أيضاً سورة القتال ولعل في ازدواج الاسم «محمد ـ القتال» إشارة عميقة إلى طبيعة المعركة التي حمل لواءها محمد ﷺ ثم ترك استئنافها لأمته، وسورة محمد من أوائل ما نزل في المدينة كما حقق ذلك الأستاذ أبو الأعلى المودودي في تفسيره تفهيم القرآن ونقله عنه صفي

الدين المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم في السيرة النبوية. وقد ذكر المفسرون أن قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب أليم﴾[الآية:٦٨] أنّ هذا الكتاب هو قوله تعالى في سورة محمد ﴿فإما منّاً بعد وإما فداء﴾ فتكون سورة محمد سابقة في النزول على سورة الأنفال وتالية لسورة الحج حيث جاء في سورة محمد الحث على القتال بعد أن نزل تشريعه بصيغة الإذن في سورة الحج. فالسورة تعالج ما دار في صفوف المسلمين من رد فعل على تشريع القتال في الأشهر الأولى بعد الهجرة وهي تصنف المحسوبين في صف محمد ﷺ إلى صنفين في مواجهة الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله فأضل أعمالهم: فالصنف الأول هم الذين سألوا أن تنزل عليهم سورة تأذن أو تأمر بالقتال وهم الذين كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم. والصنف الثاني هم الذين في قلوبهم مرض فكرهوا ما أنزل الله فأولى لهم... ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم﴾.

وعليه فإن قوله تعالى ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ في الآية الثانية من السورة وهي: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ لا يحمل فقط معنى عاماً هو التصديق بعموم ما نزل على محمد كما قال المفسرون وإنما يحمل أيضاً معنى خاصاً هو التصديق بتشريع القتال والذي جاء من قبل في سورة الحج.

وبهذا التفسير نلحظ الاتساق المعنوي للسورة كلها حضاً على

القتال وبياناً لمبرراته ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ فالتولي عن القتال نتيجته ظهور الفساد في الأرض، فالقتال مؤداه حصول رحمة الله للإنسانية برفع الظلم عنها.

ولذلك ازدوج اسم السورة : محمد – القتال. هذا الشعار : « محمد : القتال » يجب أن يتعلمه كل مسلم وأن نعلمه لأبنائنا، وإذن فنهج الأمة المسلمة في الأرض هو القتال لرفع راية الله ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ . فالأمة المسلمة أمة مقاتلة وليست أمة مسالمة والذي يتولى عن الجهاد بالقتال والانفاق يتولى عن نهج الله الذي به أرسل محمداً :﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ خاتمة السورة.

وجاء في سورة آل عمران ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ هذه الآية التي نزلت في أعقاب غزوة أحد كانت تقريراً حاسماً بالفصل التام بين مرتبة الألوهية ومرتبة الرسولية وإن تكن الرسولية الخاتمة والرسولية العظمى.. إن محمداً بشر يجري عليه ما يجري عليهم بما في ذلك الموت والقتل، وتستمر أمته من بعده في حمل الرسالة والجهاد في سبيلها.. ولنلاحظ أن الله عز وجل سمى التوقف عن القتال الذي أوشك أن يقوم به بعض الصحابة عندما سمعوا أن رسول الله ﷺ قد مات سماه انقلاباً على العقبين .. وهذا القرار الحاسم بالطبيعة البشرية للرسول ﷺ والذي سجل في الكتاب

الخالد منع على مرور الزمن أن يوجد من أتباع هذه الرسالة من يرفع محمداً إلى مرتبة الألوهية وهذا ما يناسب هذه الرسالة الخاتمة التي ستحمل دائماً رايـة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)... ﴿وما محمد إلا رسول﴾ شعار هام عظيم وبعد عظيم من أبعاد هذه الرسالة.

وجاء في سورة الأحزاب، ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما﴾.. وحيث أن الرسالة أخص من النبوة فقد ختمت الرسالات بختم النبيين وهكذا نصت الآية الكريمة على نبوته ورسالته معاً وعلى ختم النبوة والرسالة به جميعاً، وقد حالت هذه الآية دائماً دون تصديق الأمة لأي مدع للنبوة بعد رسول الله ﷺ. ولقد شاءت إرادة الله عز وجل أن لا يخلّف رسول الله ﷺ من بعده أبناء ذكوراً لحكمة ربانية بالغة ومع ذلك فقد قطع ﷺ الطريق أمام كل مزاودة ناتجة عن الانتساب إليه ﷺ فقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سر يقول: «إن آل أبي (فلان) ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين». ولقد كان التفاخر بالانتساب أو الانتسال من عظيم بحق أو متسلط بباطل وادعاء حق السيادة بسبب ذلك من الكوارث التي منيت بها كل الأمم بما في ذلك الأمة الإسلامية ومنذ البداية قال عبد الرحمن بن أبي بكر لمعاوية (ولكنكم تريدونها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل)، ولقد قاومت الأمة النظام الهرقلي الذي لم يقم ويستقر إلا بالإكراه منذ أن استبيحت مدينة رسول الله ﷺ في وقعة الحرة ثم جاء فقهاء الواقع فسلبوا الأمة دورها الريادي في تحرير العالم من الظلمة حين أقروا

للظلمة بالسلطة على الأمة الإسلامية نفسها درءاً للفتنة المزعومة واستسلمت الأمة للمتسلطين ثم للمحتلين إلى أن يأذن الله بفرجه وتعود الأمة إلى حمل دورها الريادي من جديد. ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾، ﴿رسول الله وخاتم النبيين﴾ شعاران هامان في معركة الإسلام المعاصرة.

وجاء في ختام سورة الفتح ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾. وقد نزلت سورة الفتح بعد صلح الحديبية وبشارة بفتح مكة. وقد جاء في سفر التثنية ـ من الأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام ـ «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وجاء معه عشرة آلاف قديس ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم». عشرة آلاف كانوا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة... ونار شريعة لأنها شريعة القتال، وينسب متى في انجيله إلى يحيى عليه السلام قوله: «أنا أعمدكم بماء للتوبة.. ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني سيعمدكم بروح القدس والنار لأنه سينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن أما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ».. هي نار الجهاد الماضي إلى يوم القيامة.. ﴿ليظهره على الدين كله﴾ ﴿أشداء على الكفار

رحماء بينهم﴾ هذه شعارات الرسالة المحمدية من سورة الفتح.

وجاءت بشارة عيسى بمحمد ﷺ في سورة الصف: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وقد استعرضنا ما تبقى في الأناجيل المتداولة اليوم من هذه البشارة في الفصل الرابع من هذا الكتاب. واخفاء هذه البشارة وتمويهها هو جزء من زيغ أهل الكتاب الذي استعرضته السورة كمنطلق لقتالهم. فسورة الصف كسورة محمد هي دعوة للقتال وإذا كان التركيز هناك على المشركين الذين أخرجوا محمداً ﷺ من مكة فإن التركيز هنا على أهل الكتاب الذي أوضحت الأحداث للمسلمين أنهم يرفضون الانصياع لمقتضى البشارة التي يعرفونها. ثم جاءت سورة التوبة بقتال الفريقين جميعاً كما أوضحنا في مقدمة الكتاب ـ وراجع تفسير الآية ٢٩ من سورة التوبة في التحرير والتنوير ـ . . وحين حمل الصحابة رضوان الله عليهم هذه الرسالة وقاتلوا أئمة الكفر تفتحت قلوب الناس للإسلام. جاء في نبوءة حبقوق في العهد القديم «الله يأتي من الجنوب والقديس من جبل فاران ـ برية إسماعيل من مكة ـ غطى حمده السموات والأرض» وجاء في بنوءه حجاي في العهد القديم «بعد قليل يأتي أحمد كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً» . .

وظهر دين الله على الدين كله وسيظهر من جديد حين تحمله أمته وتقاتل في سبيله الذين يفترون على الله الكذب وهم يدعون إلى الإسلام لأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم. ويومها سيمتلئ هذا البيت ـ أي المسجد الأقصى ـ من جديد مجداً وسيدخلونه كما دخلوه أول مرة . .

وجاء في سورة الإسراء ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ الآية ٧٩، قال في الجلالين: مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام الشفاعة في فصل القضاء.. وبها يتم له رتبة الأحمدية والمحمدية والمحمودية في الدنيا والآخرة ويظهر دينه على الدين كله في الدنيا والآخرة.. وأرشده ربه إلى الصلاة وسيلة لهذه الدرجة ونزلت هذه الآية في سورة الإسراء الذي فيه فرضت الصلاة وارشدنا ﷺ أن ندعو له بها عقب الآذان والإقامة لكل صلاة «اللهم آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته» فهذا الدين دين الصلاة والجهاد وكما وصف الصحابةَ أحد أعدائهم فقال: «رهبان في الليل فرسان في النهار». هذه إشارات سورة الإسراء.

روى البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد ـ من الأنبياء ـ قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض كلها مسجداً وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة».. وقد ورد في أحاديث أخرى ما يفيد اختصاصه بغير هذه الخمس أيضاً ومن ذلك «أعطيت جوامع الكلم وختم بي النبيون».. والمتأمل في هذه الخصائص يجد فيها أبعاد الرسالة الخاتمة العالمية ووسيلتها الجهادية: المغانم والنصر بالرعب والصلاة في كل مكان.

وأخيراً نقول أنه ما تعلقت قلوب الناس بحب شخص وهم

يعلمون أنه إنسان كما تعلقت قلوب المسلمين قديماً وحديثاً بحب رسول الله ﷺ بل لقد تعلقت القلوب بحبه لأنه إنسان عظيم في إنسانيته، عظيم في تقرير هذه الإنسانية وتجريدها وارجاع كل شيء إلى الله عز وجل، عظيم باختيار الله له ليكون حامل هذه الرسالة العظمى «الله أعلم حيث يجعل رسالته» [الأنعام: ١٢٤] وإن هذه الرسالة لهي الكوثر ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش

(١) راجع تفسير الآيات في مواضعها في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب وفي التحرير والتنوير للشيخ بن عاشور .

(٢) راجع ما كتبه الأستاذ وحيد الدين خان في تاريخ الدعوة إلى الإسلام عن هذا المعنى .

(٣) أي ما تؤول إليه ذلك أن الإنسان خوطب بالقرآن كاملاً وما لم يتضح معناه في جيل من الأجيال سيتضح في جيل آخر بحيث تقوم الحجة بالقرآن على الإنسان إلى آخر الزمان المقدر للإنسان .

(٤) هناك تأويلان آخران للإفسادين قدمهما بعض المعاصرين، الأول هو أن الإفساد الأول قام بتدميره البابليون والثاني هو هذا الإفساد اليوم وسيدمره البابليون الجدد أي العراقيون ولا تخفى الوجهة السياسية لهذا التأويل في ضوء حرب الخليج الثانية وتهافت فكرة أن البابليين الجدد هم العراقيون بعد اندثار بابل نهائياً وكون تحديد الحرب بين اليهود والبابليين ينفي وجهتها العقيدية فلا تبقى لها أهمية خاصة ليذكرها القرآن الكريم، كما وأنه إذا أهمل الاعتبار العقيدي في الصراع فلا يبقى سبب لاعتبار تدمير البابليين لبيت المقدس وعدم اعتبار تدمير الرومان له. أما التأويل الثاني فهو أن الافساد الأول هو هذا الذي نحن فيه اليوم، أما الإفساد الثاني

فسيدمره عيسى عليه السلام وسيكون في المستقبل وقد ذكر هذا التأويل الدكتور صلاح الخالدي في مقال له في جريدة اللواء الأردنية (١٧/١٢/١٩٩٥) ولم يؤيده ولم أطلع شخصياً على كتابات القائلين بهذا التأويل لتبين مستنداتهم وانظر الفقرة الأخيرة من الفصل الرابع في هذا الكتاب.

(٥) (خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس) عنوان مقال نشره شهود يهوه في مجلتهم (استيقظ) باللغة الانجليزية وقد أورده العلامة الشيخ أحمد ديدات في كتابه (هل الكتاب المقدس كلام الله) ولا يزال أهل الكتاب يتلاعبون بكتبهم إلى اليوم رغم وجود الطباعة، وذلك بالتغيير في الطبعات الجديدة والترجمات وتنقيحها استناداً إلى مزاعم عن مكتشفات متجددة دوماً في المخطوطات القديمة أو في المعاني الدقيقة لكلمات اللغات القديمة وقد أورد ديدات عدة أمثلة على ذلك في كتابه المذكور والواقع أن مجموعة كتيبات الشيخ ديدات يجب أن تترجم إلى العربية بعيداً عن الأهداف التجارية وأن لا تخلو منها أية مكتبة ثقافية عامة بل وأي بيت مسلم وأن توضع بين أيدي الطلاب في المدارس في المرحلتين الإعدادية والثانوية في هذا الزمن الذي يراد فيه لبس الحق بالباطل، وتمييع الفروق بين الديانات وإظهار الديانتين

اليهودية والنصرانية ـ كما هما اليوم ـ على أنهما مقبولتان عند الله بينما كان بيان تحريفهما وخروجهما عن دين الله وتضليلهما للناس أحد أهم أهداف الرسالة الخاتمة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

(٦) تعاصرت دراسات نقد الكتاب المقدس في العالم الغربي مع ظهور وسيطرة نظريات التطور في علم الحياة وهيمنة الاتجاه التطوري في الدراسات الإنسانية، ولذلك اصطبغت هذه الدراسات بهذه النظرة بحيث يعتبرون التسلسل التاريخي المفترض لأسفار العهد القديم دالاً على تطور الفكر الديني عند بني إسرائيل من التعدد إلى التوحيد، ولكننا كمسلمين نؤمن بأن التوحيد جاء مع الإنسان نفسه منذ آدم وأن التطور العقيدي في العهد القديم ناشئ عن كونه تكديساً لأفكار كتبته التي نقلوها عن الأمم التي اختلطوا بها بشكل عشوائي وبعيداً عن الاهتداء بالكتب الأصلية التي جاء بها الأنبياء الكرام، ويجب التنبه إلى هذه النقطة خاصة عند قراءة الكتب المتأثرة بفرويد وكتابه (موسى والتوحيد) والذي يزعم فيه أن موسى كان مصرياً وجاء بالتوحيد نقلاً عن اخناتون ويتابع بعض المؤلفين العرب والمصريين خصوصاً هذه النظرية اعتزازاً باخناتون الذي كان عابداً للشمس، وهذا فضلاً عن تناقضه

مع العقيدة الإسلامية يتناقض مع الطعن في مسلمة أن أخناتون جاء قبل موسى الذي سمي بنظرية الخطأ الجسيم ـ راجع كتاب سهيل ديب عن التوراة ـ مما يجعل معطيات التاريخ القديم تحت الظنيه فضلاً عن إفادة القطع واليقين وراجع الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب.

(٧) قد يستغرب البعض أن يشارك المتدينون اليهود والنصارى في أبحاث نقد الكتاب المقدس ويعترفون بتحريف كتبهم وهم إنما يفعلون ذلك ليساهموا في توجيه هذه الأبحاث وتغطية مجالاتها أمام المتدينين من عامتهم بحيث «يكفونهم» مراجعة كتب الملحدين وهم بذلك يحاولون أن يقدموا صورة إيجابية عن نواياهم وموضوعيتهم ويعملون على حصر الدراسات في الاهتمام بالتفاصيل بحيث يحولون دون التوصل إلى الأهداف الحقيقية الشاملة للتحريف والتي من أهمها حذف ذكر البشائر بمحمد ﷺ وهكذا تنطبق نظرية العميان الصغار (العامة من اليهود والأمم) والعميان الكبار (القادة من غير اليهود) على أهل الكتاب قديماً وحديثاً ولذلك فقد كانت كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك الأمم الذين عاصروه (أسلم تسلم فإن توليت فإنما عليك إثم المجوس أو القبط..الخ) ولذلك فالحرب التي يشنها أهل

الكتاب على المسلمين يوجهها ويديرها قادتهم السياسيون والدينيون والاقتصاديون أما بقية شعوبهم فهم تبع لهم ويتوجب على المسلمين أن يتوجهوا إلى هذه الشعوب لبيان خيانة قياداتهم لهم بحجب الإسلام عنهم حفظاً لمصالحهم وعندما قام الصحابة بتنحية هذه القيادات بقوة الفتح دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وقد بين القرآن الكريم أن الجهاد بالقتال موجه إلى أئمة الكفر الذين يضلون أممهم ويسوقونهم إلى حرب الإسلام ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ [التوبة: ١٢]. وبهذا يتبين عقم ما يسمى بمؤتمرات حوار الأديان مع القيادات الدينية لأهل الكتاب واقرأ فصل العلاقات بين الأديان في كتابي مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام وكتاب الشيخ ديدات بين القرآن والإنجيل.

(٨) يقول الكاهن ودكتور اللاهوت ج. هـ. ويد في كتاب (تاريخ العهد القديم) : «كيف تفسر التناقض بين بعض نتائج الدراسات النقدية حول أصل وتاريخية كتب العهد القديم واستشهاد سيدنا (يقصد المسيح) بها ؟» ويجيب «بأن جهلنا عن ظروف التجسد (يقصد التجسد الإلهي في المسيح) والعلاقة بين الطبيعتين (الإلهية والإنسانية) في المسيح يمنع من القول بأن كل كلمة قالها بالمعنى الدقيق

صحيحة ومن المعروف أن المسيح أظهر الجهل وطلب معلومات ممن حوله..الخ، ولذلك فإن ادعاء سيدنا أنه ابن الله لا يتعارض مع محدودية علمه بسبب طبيعته الإنسانية الكاملة» ونحن كمسلمين نقول بأن رسولية عيسى عليه السلام تكفي لعصمته من الخطأ في الأمور الدينية وإذا كان رواة الأناجيل قد نسبوا إليه الاستشهاد بنصوص تدل الدراسات النقدية على خطئها أو خطأ نسبتها إلى قائليها فهذا يدل إما على خطأ استنتاجات الدراسات النقدية أو على كذب وتحريف رواة الأناجيل والاحتمالان قائمان وواقعان.

(٩) ولذلك يسمي السامريون (النبي من اخوتهم) بالتاهب أي العائد.

(١٠) المسيح تعني المسموح تكريساً لمهمة. ولما فسدت الكوادر الدينية الإسرائيلية اقتضى أن يكون نبي آخر هو الذي يمسح المسيح أي يصدقه ولذلك جاءت نبوة يحيى سابقة على نبوة عيسى وجاء يحيى مصدقاً بعيسى[آل عمران: ٣٩-٤٥] [والنساء ١٧١] ولذلك فالروايات الواردة في الأناجيل المعتمدة عند النصارى والتي تفيد تردد يحيى في التعرف على نبوة عيسى روايات كاذبة دون أدنى شك، وقد مسح يحيى عيسى عليهما السلام بالماء للإشارة إلى انتهاء المسح

بالزيت . والماء شعار الأمة الجديدة أمة الوضوء ولذلك سموا يحيى بالمعمدان . وكانت معجزة ولادة يحيى من أم عاقر وأب كبير في السن ممهدة لولادة عيسى من غير أب، ويلاحظ التقارب بين معنى اسميهما يحيى وعيسى (أي عيشاً أو يعيش بقلب السين شينا كما هي في كثير من الكلمات الآرامية)، وبشر كلاهما بأمة محمد ﷺ فيحيى صدق بعيسى وبشر بمحمد كما أن موسى بشر بعيسى مبشراً بمحمد[الأعراف : ١٥٧] والإنجيل تعني البشارة باليونانية وقد تكون من الآرامية بمعنى جلاء أو الجلاء البشارة أي قرب تحققها على اعتبار أن أول البشارة بمحمد لبني إسرائيل كان في التوراة وآخرها في الإنجيل وفي الحديث الذي رواه أحمد في مسنده (أنا دعوة أبي إبراهيم وآخر من بشر بي عيسى بن مريم) وعليه فعيسى هو المخول بسلطة المسح من نبي آخر وبسلطة المعجزة أن يقرر انتهاء النبوة من بني إسرائيل وانتقالها إلى النبي من بني إسماعيل ولعله لذلك جاء عيسى من غير أب من بني إسرائيل لأنه يبشر بانقطاع النبوة منهم - ربما كانت تسمية الكتبة للأخ الذي ابتدعوه ليعقوب عيسى (أو العيص أو عيسو وهي نفس الكلمة) لأنهم كانوا يعلمون أن عيسى هو الذي يبشر بانقطاع عقبهم في النبوة فجعلوه

الأخ المهمل ليعقوب الذي يعني تعقيب النبوة ـ وكانت أمه مريم عليها السلام من آل هارون بيت العلماء لا من يهوذا بيت الملوك لانقطاع الملك منهم كذلك خلافاً لما ابتدعوه لمسيحهم المنتظر من أنه ابن داود والعجيب أن الأناحيل لإثبات أن عيسى عليه السلام هو مسيح اليهود المنتظر ابتدعوا له نسباً إلى داود من خلال يوسف النجار خطيب مريم المزعوم والذي ستر عليها بزواجه منها وهي حامل بينما نعلم من الحقيقه القرآنية أن اليهود اتهموها بالزنا حين أتتهم بعيسى وأن الذين برأها كان عيسى نفسه إذ تكلم في المهد صبيا [مريم : ٣٠] .

(١١) يرى السموأل الحبر اليهودي الذي اعتنق الإسلام في كتابه افحام اليهود أن النبوءة الواردة في سفر التكوين ونصها : لا يزول سلطان من يهوذا حتى يجيء المسيح كناية عن انتهاء النبوة من اليهود بمجيء المسيح ومع انتهاء النبوة انتهاء سلطانهم على المسجد .

(١٢) قد يعجب البعض من قولنا إن اليهود يزعمون لأنفسهم أنهم حملة التوحيد وفي نفس الوقت يريدون الانتقام من الله ولكن هذا العجب ناتج عن تصور أن فهم اليهود لعلاقتهم مع الله هو كالفهم الإسلامي أي العبودية الخالصة، والواقع أن

اليهودي يرى أن أمة اليهود هي ابن الله المدلل، والذي قد يخالف والده ويغضبه وقد يقوم هذا بضربه وتاديبه ولكن لابد أن يرجع إليه ويسترضيه وأما باقي الناس فهم كحيوانات التسلية والخدمة التي اشتراها الأب لابنه ليستخدمها فهي خارج اللعبة تماماً وإن كان الأب يستطيع أحياناً أن يجعلها شرسة لتداعب الابن أو تعضه قليلاً، ولكنه لا يلبث أن يطردها ويأتي بغيرها لتسلية هذا الابن، وهذه الحيوانات لا تدرك عن اللعبة شيئاً بل إن محاولتها لفهم هذه اللعبة نوع من التطاول يجب أن تؤدب عليه، ولنسمع لهذا النص من سفر أرميا «أما أنت يا عبدي يعقوب فلا تخف لإني أنا معك لأني أفني كل الأمم الذين بددتك إليهم، أما أنت فلا أفنيك بل أؤدبك بالحق ولا أبرئك تبرئة» (٤٦ ، ٢٨).

(١٣) وقد أشار القرآن الكريم أيضاً إلى المبرر الخلقي لاصطفاء اسحق ويعقوب بقوله تعالى ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾[ص:٤٦]، والمقصود إنهم كانوا أصحاب قوة (أيد) في العبادة وبصيرة في الدين وتميزوا بخصلة هي ذكر الدار الآخرة اصطفيناهم بسببها.

(١٤) وتواطؤ أهل الكتاب اليوم على اغتصاب بيت المقدس هو

مقدمة لاغتصاب المسجد الحرام وتدميره للسير على خطى عزرا وبولص، وقد كان الصليبيون بعد احتلال القدس قد خططوا لاغتصاب المسجد النبوي الشريف ونبش جسد الرسول ﷺ من قبره وباشروا العمل لذلك لولا أن قيض الله صلاح الدين وصحبه المؤمنين فاحبطوا مشاريعهم.

(١٥) دراسة التراث البولصي توحي بوجود مؤامرة خاصة بعد أن غير بولص اسمه من شاول إلى بولص بعد لقاء حاكم قبرص (راجع المسيح الدجال لسعيد أيوب ص١٠٧) ويرى هيم ماكبي استاذ الأديان في لندن في عمل بولص مغامرة شخصية هذا وقد أضفى بولص على نفسه الصفات التي ذكرها عيسى لمحمد ﷺ وهي كون محمد رسول الأمم وقد سمّى بولص نفسه رسول الأمم، أما عن تحامل بولص على إسماعيل وذريته واخراجه لهم من العهد فراجع رسالته إلى روميه ٩ (٦–٨) و١١ (٥–٧).

(١٦) وابتدعوا لإبراهيم زوجة أسموها قطورة ـ أي البخار ـ جاءه منها الكثير من الولد لكيلا يكون تميز سارة على هاجر بدعاً من الأمر فقد ميز سارة على كل زوجاته الأخريات والعجيب أن يتابع المؤلفون المسلمون هذه الأخبار رغم رواية القرآن عن إبراهيم حمده لله أن وهبه «على الكبر» إسماعيل وإسحق

فلو رزق بآخرين بعدهم على كبر سنه أكثر بحكم زواجه المتأخر من قطورة لكان ذكرهم في معرض الحمد لله من باب أولى، ولا ريب أن قصص الكتاب المقدس كلها قطورة (أي بخار) ولم يقتصر تزوير بني إسرائيل على الأحداث التاريخية وقصص الأنبياء ومعانيها الرمزية وإنما امتد إلى الواقع الجغرافي (مثل فاران وحوريب وبيت أيل...) ووصل إلى التقويم فاستخدموا النسيء بإضافة أيام إلى السنة القمرية لكي تتصادف الأعياد الشرعية مع المناسبات الفصلية الزراعية لتتسق مع أعياد الأمم التي عاشوا في ظلالها وبعد ذلك اعتمد النصارى التقويم الشمسي نهائياً وجعلوا عيد ميلاد المسيح مباشرة بعد الانقلاب الشتوي، حيث يبدأ النهار بالطول بعد وصوله أقصى قصره (بما يمثله ذلك من ولادة الإله الشمس) وذلك أن قسطنطين الذي اعتمد النصرانية ديناً رسمياً للدولة الرومانية كان كذلك كاهن عبادة الشمس الأكبر. وقد طالب بيريس المسلمين في مؤتمر للأديان عقد في القاهرة بأن يلغوا صيام رمضان ويصوموا على طريقة اليهود استناداً إلى قوله تعالى ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ [البقرة:١٨٣] فتأمل.

(١٧) في كل مرة يوجه فيها التأنيب إلى بني إسرائيل على ما اقترفوا فإن ذلك أيضاً تنبيه إلى أمة محمد ﷺ أن تجتنب

تقليدهم لئلا يصيبها ما أصابهم وقد سميت السورة كلها بسورة البقرة لما في قصة البقرة من الدلالة الرمزية على طباع بني إسرائيل قساة القلوب كما يصفهم القرآن، غلاظ الرقبة كما يصفهم العهد القديم، وفي ذلك اعداد للجماعة المسلمة للخلافة على الأرض، وقد نبه الرسول ﷺ إلى أن أمته ستتبع سنن من قبلها وعليه فسيقع العقاب عليها كذلك ولكن في كونها الأمة الخاتمة ما يجعلها ترجع إلى الصراط المستقيم «لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق» ـ رواه الشيخان ـ ولعل من أهم موبقات بني إسرائيل التي يتابعهم فيها المسلمون اليوم ما يمكن تسميته «أنويه» التصور أي الانطلاق من الأنا فقد اعتبر بنو إسرائيل أنفسهم الشعب المختار وجعلوا من أنفسهم مركز التاريخ وادعوا أن الله لا يعاقبهم مهما فعلوا، ولكن القرآن الكريم قد بيّن لنا ما فعله السابقون وقرّر أن من فعل فعلهم عوقب عقابهم، ولذلك فكل استناد إلى قوله تعالى ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] أو ما ينسب إليه ﷺ «الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة»*

* قال الحافظ ابن حجر ونقله عنه السخاوي في المقاصد الحسنة: لا يعرف عند المحدثين بهذا اللفظ لكن معناه صحيح يدل عليه حديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

في جعلنا أنفسنا فوق العقوبة هو متابعة للآخرين في عنصريتهم، الأمة الخير التي أخرجت للناس هي الصحابة ومن سار على هديهم وأمة محمد ﷺ هي من يعمل عمل محمد وليس لأحد عند الله قرابة خاصة.

(١٨) ولكن إسرائيل اتخذوا من دون الله وكيلا وذلك بالمعنيين الديني والسياسي وهما عادة مترابطان فما أن مات سليمان حتى عبدوا آلهة جيرانهم وادخلوا الأصنام إلى المسجد الأقصى مثل الكروبيم والترافيم والأفعى النحاسية بل ونسبوا عبادة الأصنام إلى سليمان والتجؤوا إلى المصريين والأشوريين وهكذا دمرت ممالكهم وتحت الوصاية الفارسية جاؤوا بفكرة أنهم فوق البشر وأن الههم سينتقم لهم من البشر وآلهتهم وكتبوا كتبهم على هذه المنظومة. وتدور عقدة بني إسرائيل على هذه الازدواجية : نظرياً يزعمون أنهم أبناء الله ليس لله أبناء سواهم وعليه يحق لهم ما لا يحق لغيرهم، وعملياً يلجؤون دائماً إلى المسكنه والاحتيال على غيرهم ممن يسمونهم بهائم ليقوموا بحمايتهم، فإن اكتشفت فعالهم ونالوا جزاءهم وضعوا اللوم كله على الله وطلبوا منه أن يندم على فعل الشر بهم.

(١٩) وأيضاً الوفاء بعهد الله ﴿ وأوفوا بعهدي أوف

بعهدكم﴾ [البقرة:٤٠] فهو عهد وليس وعداً. ويذكر أن النصارى غيروا اسم كتبهم من العهد القديم والجديد (Covenant) إلى الوعد القديم والجديد (Testament).

(٢٠) يلاحظ أن داود هو النبي الوحيد الذي قرن اسمه بالخلافه بعد آدم عليهما السلام، أما أمة محمد ﷺ فقد جاء وعد الاستخلاف لها في سورة النور كجماعة وليس فقط لشخص محمد ﷺ وفي هذا تكريم لها وحث على أن تخلف الأنبياء في سيرتهم وإشارة إلى امتداد هذا الاستخلاف بعد غياب شخص الرسول ﷺ وأما استخلاف داود فقد انتهى بوفاة داود ووريثه سليمان ﴿وورث سليمان داود﴾ عليهما السلام ويثبت التاريخ أن القادة السياسيين لبني إسرائيل ارتدوا عن الإسلام بشكل كامل بعد وفاة سليمان فسلبت منهم الخلافة.

(٢١) راجع الحاشية رقم ٤.

(٢٢) وقد استخدمت آية ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾ [البقرة:٢٠٨] في موضع الحديث عن السلام وهي تعني هنا الإسلام وليس الهدنة الحربية، راجع فصل الشيخ والحاخام من هذا الكتاب.

(٢٣) راجع مثلاً نبوءه صفنيا (١٢,٢) : (الرب رهيب عليهم

فسيتأصل جميع آلهة الأرض) ونبوءة حزقيال (٢٧، ٢٨) :
(ويكون مسكني فوقهم وأكون لهم الها ويكونون لي شعباً فتعلم الأمم اني أنا الرب مقدس إسرائيل).

(٢٤) قال ابن حزم في كتابه الأنساب (إن الله تعالى قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى ولو أنه ابن زنجيه لغية وأن العاصي الكافر محطوط الدرجة ولو أنه ابن نبيين) وان في بني إسرائيل لعبرة للعالمين فقد كرمهم الله بالنسب إلى الأنبياء وبالرسالات ولكنهم فسقوا وكفروا فكان جزاؤهم الخزي في الدنيا والآخرة ليكونوا عظه لمن لم يشرف بنسب أو لمن يظن أن نسبه يغني عنه من الله شيئاً فالناس في ملكوت الله سواء.

(٢٥) ترجع تسميه هؤلاء الأقوام بالساميين إلى المستشرق أوجست لودفيح شلوتسر عام ١٧٨١ اعتماداً على شجرة الانساب التوراتية ، والتوراة المزيفة تزعم أن كنعان هو ابن حام وليس ابن سام وقد أثبتت دراسة اللغات المقارنة الأصول الواحدة للغات السامية ومن ضمنها الكنعانية والتي تعتبر العبرانية تفرعاً منها ولكن المستشرقين والكتاب الغربيين استمروا باستخدام مصطلح السامية ليعني كل الشعوب التي سكنت ما يسمى بالهلال الخصيب وجاءت أصلاً من جزيرة

العرب ويرى الباحثون العرب المحدثون مثل جواد علي ومحمد عزه دروزة ضرورة تسمية هؤلاء الأقوام بالعرب لأن من المتفق عليه أن هذه الشعوب هاجرت من جزيرة العرب وأن لغاتهم جميعاً مشتقة من لغة أصلية واحدة هي اللغة العربية، راجع محمد رشيد ناصر ذوق في كتابة لغة آدم عطاء أبدي لبني آدم.

(٢٦) راجع عن معبودات اليهود من دون الله كتاب التوراة بين الوثنية والتوحيد لسهيل ديب نقلاً عن كتاب الألهات اليهودية لروفايل باتاي، ومن هذه الألهات عشيره (أو اللات) وابنتها عشتروت (أو أناة ، أو مناة) وعشتار (أو العزى؟) والكروبيم (تماثيل الملائكة المجنحة) والشخينه وليليت الشريرة والسابات آلهة الجنس ومربع الآلهة أي الأب والزوجة والابن والابنه وهي الماترونيت أي السيدة الشفيعة.

المراجع

أولاً باللغة العربية

١ـ أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤.

٢ـ أحمد حجازي السقا ـ الله وصفاته في اليهودية والنصرانية والإسلام ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٧٨.

٣ـ أحمد حجازي السقا ـ لا نسخ في القرآن ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة، ١٩٧٨.

٤ـ أحمد حجازي السقا ـ المسيا المنتظر نبي الإسلام ـ مكتبة الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.

٥ـ أحمد ديدات، بين الإنجيل والقرآن، كتاب المختار، القاهرة.

٦ـ أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

٧ـ إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، سيما للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.

٨ـ أسعد بيوض التميمي، زوال إسرائيل حتمية قرآنية، دار المختار الإسلامي، القاهرة.

٩- أسعد السحمراني، من اليهودية إلى الصهيونية، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٣م.
١٠- إسماعيل راجي الفاروقي، أصول الصهيونية في الدين اليهودي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٨م.
١١- إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م.
١٢- إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٣- إكرام لمعي، الاختراق الصهيوني للمسيحية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣م.
١٤-أنيس القاسم، نحن والفاتيكان وإسرائيل، مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت، ١٩٦٦م.
١٥- أي، بي، برانايتس، فضح التلمود، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٣م.
١٦- بنيامين فريدمان، يهود اليوم ليسوا يهوداً، دار النفائس، ١٩٨٣م.
١٧- بندكت سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٤م.
١٨- جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، المكتبة

الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.
١٩- جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت.
٢٠- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.
٢١- جون هوك، اسطورة تجسد الإله في السيد المسيح، دار القلم، الكويت، ١٩٨٥م.
٢٢- حسين فوزي النجار، أرض الميعاد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
٢٣- حسين كمال الدين، اسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة، مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، المجلد الأول، العدد الثاني، ١٣٩٥هـ-ص٢٨٩ - ٣٣٩.
٢٤- حسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت.
٢٥- رائف نجم، القدس الشريف، وزارة الأوقاف الأردنية، عمان.
٢٦- رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، إظهار الحق، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
٢٧- رشاد عبدالله الشامي، القوى الدينية في إسرائيل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤م.

٢٨- سعيد أيوب، المسيح الدجال، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٩م.
٢٩- سمؤال بن يحيى المغربي، افحام اليهود، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإرشاد، الرياض، ١٩٨٦م.
٣٠- سهيل ديب، التوراة بين الوثنية والتوحيد، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥م.
٣١- سهيل ديب (ترجمة)، التوراة تاريخها وغاياتها، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦م.
٣٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٦م.
٣٣- شارل جينيبر، تاريخ المسيحية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م.
٣٤- شفيق مقار، قراءة سياسة التوراة، رياض الريس للنشر، لندن، ١٩٩١م.
٣٥- شفيق مقار، المسيحية والتوراة، رياض الريس للنشر، لندن، ١٩٩٢م.
٣٦- ضياء الدين المقدسي، فضائل بيت المقدس، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م.
٣٧- ظفر الإسلام خان، التلمود تاريخه وتعاليمه، دار النفائس،

بيروت، ١٩٨٥م.
٣٨- عبد الأحد داود، محمد في الكتاب المقدس، رئاسة المحاكم الشرعية، قطر، ١٩٨٥م.
٣٩- عبد الحميد السائح، أهمية القدس في الإسلام، مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٨١م.
٤٠- عبد الرحمن بن الخطيب السهيلي، التعريف والأعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، مكتبة الأزهر القاهرة، ١٩٣٨م.
٤١- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م.
٤٢- عبدالله عزام، الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان، مكتبة الإيمان، الإسكندرية، ١٩٨٨م.
٤٣- عبدالله بن عمر الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت.
٤٤- عبد الكريم الخطيب، اليهود في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨١م.
٤٥- عبد الملك بن هشام الحميري، السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧١م.
٤٦- عبد الملك بن محمد الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف

والمنسوب، مطبعة القاهرة، ١٩٠٨م.

٤٧- علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، القاهرة.

٤٨- علي بن أحمد الواحدي، أسباب النزول، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م.

٤٩- غريس هالسل، النبوءة والسياسة، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٠، بيروت.

٥٠- فهد الريماوي، الجملة الإبراهيمية، مقال في صحيفة شيحان الأردنية، ١٣/١١/١٩٩٣م.

٥١- كارل ماركس، المسألة اليهودية، مكتبة الجيل، بيروت.

٥٢- الكتاب المقدس، جمعية الكتاب المقدس، (البروتستانتية) في الشرق الأدنى، بيروت، ١٩٧٠م.

٥٣- الكتاب المقدس، دار المشرق (الكاثوليكية)، بيروت، ١٩٩٦م.

٥٤- لطفي اكدوغان، سارة المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٥م.

٥٥- لوي ما سنيون، المباهلة بين النبي ونصارى نجران، في كتاب شخصيات قلقه في الإسلام، تجميع وترجمة عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٤م.

٥٦- محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
٥٧- محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
٥٨- محمد البهي، الاخاء الديني ومجمع الأديان، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨١م.
٥٩- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤م.
٦٠- محمد بن الحسين أبو يعلى الفراء، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
٦١- محمد خليفة التونسي، الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون، دار الكتب العربي، بيروت.
٦٢- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العربية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
٦٣- محمد رشيد ناصر ذوق، لغة آدم عطاء أبدي لبني آدم، جروس برس طرابلس، لبنان.
٦٤- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر.
٦٥- محمد عزه دروزة، تاريخ الجنس العربي، المكتبة العصرية،

صيدا، لبنان.
٦٦- محمد عزه دروزة، الجهاد في سبيل الله، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٧٥م.
٦٧- محمد عزه دروزه، السيرة النبوية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٥م.
٦٨- محمد علي أبو حمده، كعب الأحبار، دار البشير، عمان، ١٩٩١م.
٦٩- محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤م.
٧٠- محمد المجذوب، دروس من الإسراء، مقال في مجلة الوعي الإسلامي، العدد ١٠٣- اغسطس ١٩٧٣م، وزارة الأوقاف الكويتية، ص٢٦-٣١.
٧١- محمد نمر الخطيب، حقيقة اليهود والمطامع اليهودية، هدية مجلة الوعي الإسلامي، الكويت ١٩٦٩م.
٧٢- محمد هلال، مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام، دار البشير، عمان، ١٩٩٢م.
٧٣- محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، دار المعرفة، بيروت.

٧٤- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م.
٧٥- وحيد الدين خان، تاريخ الدعوة إلى الإسلام، الرسالة للاعلام الدولي، القاهرة، ١٩٩٢م.
٧٦- هيم ماكبي، بولس وتحريف المسيحية، المعهد الدولي للدراسات الانسانية، بيروت، ١٩٩١م.
٧٧- يحزقيل قوجمان، قاموس عبري عربي، دار الجيل، بيروت، ١٩٧١م.
٧٨- يواكيم بيرنز، بابوات من الحي اليهودي، دار إحسان، دمشق، ١٩٨٣م.
٧٩- يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠م.

ثانيا : باللغات الأجنبية

80- Ata Ur- Rahim M, Jesus Prophet Of Islam, Begum Aisha Bawany Wagqf, Karachi, 1979.

81- Ben-Yehuda E., Pocket English Hebrew, Hebrew Engish Dictionary, Simon And Schuster Inc. New York, 1961.

82- Chouraqui A, Histoire Du Judaisme, Que Sais-je, P.u.f, Paris, 1993.

83- Collier's Encyclopedia, Macmillan Inc, New York, 1990.

84- Deedat A, Is The Bible God's Word, Islamic Propagation centre Interntional, Durban,(South Africa), 1994.

85- Duverger M, Introduction A La Politique, Gallimrad, 1995.

86- Gore C., Goudge H. And Guillaume A. New Commentary On The Holy Scripture, Spck, London, 1937.

87- Graves R. And Patai R. Hebrew Myths, Chassel And Co. Ltd London (1965).

88- Guignebert Ch. , Ancient, Medieval And Modern Christianity, University Books., New Hyde Park, New York, 1961.

89- Holy Bible, New International Edition, International Bible Society, Colorado (U.s.a) 1993.

90- Kotker N., The Earthly Jerusalem, Charles Scripner's Sons New York 1969.

91- Patai R., The Messiah Texts, Avon Books, New York, 1979.

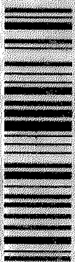
92- Sanders J.a., Torah And Canon, Fortress Press, Philadelphia, 1972.

93- Shimshon I., English Hebrew And Hebew English Dictionary, S.Zack And Co Publishers, Jerusalem, 1995.

94- Wade G.w., Old Testament History, Methuen And Co. Ltd, London, 1951.

95- Wise M. et al Ed. Methods Of Investigation Of The Dead Sea Scrolls, New York Academy Of Sciences, New York, 1994.

الفهرس


Bibliotheca Alexandrina
02220116